



بفام

Ambly ليوتوتوتوي

<http://arabicivilization2.blogspot.com>
لطفي سلطان

حقوق الطبع محفوظة لدار الاملا

مؤلف الرواية

مؤلف هذه الرواية هو « ليو تولستوى » (١٨٢٨ - ١٩١٠)

رجل فذ في تاريخ الاداب العالمية ، مقامه في عالم القصة كمكان « ميكل انجل » في عالم الرسم او عالم النحت .. فحل من الفحول في انتاجه الكبير الرائع ، ولكنه ليس روائيا فحسب ، بل هو ايضا صاحب رسالة ، وصاحب قلب كبير ، وحس دقيق عميق

اعتنق مبادئ السلام والرحمة ، وهاله ان تصبح رسالات الانبياء التى قصد بها ان تؤلف بين القلوب ، من اقوى اسباب تنافر الناس وتآلبهم بعضهم على بعض بأشد العداوة والبغضاء

وهاله ان الاوطان التى بها يفخر الانسان ، واليهما يحن ، قد جعلت من ارضا التى تجمعنا على ثديها احياء ، وفي جوفها امواتا ، ماثرا للتنازع والتطاحن ، من اجل منفعة زائلة ، وجاه مفصوب ، يقوم على الغبن والعدوان ...

وهكذا انقلب تولستوى سليل بيت الامارة والنبيل والثراء العريض والضياع المترامية الاطراف ، مبشرا بالعدالة والمساواة ، وبأن الارض ليست ملك احد ، وانما هى حل لمن يحلب شطريها بساعده ، وبأن المحبة والسلام يجب ان يسودا الناس ، بحيث يتحرر الشعب من رق الاستبداد والاستغلال على السواء

وجرد الرجل نفسه لرسالته ، وجعلها هدفا لرواياته الطوال والقصار ... بعد ان طبقها على حياته الخاصة . وكتب مؤلفات في الاجتماع والنقد الفنى ، هى للاسف اقل من رواياته فى كل شىء ،

تخصيات الرداية

احدى فتيات الاسر
المحافظة فى روسيا
صديق والد كاتيا وكان
يتردد عليها بحكم الجوار
شقيقة كاتيا
مربية قامت بتربية
اطفال الاسرة
والدة سرج
ميخايلوفتش

من سيدات المجتمع
الراقى فى بطرسبرج

سفير فرنسى كان يقيم
فى بطرسبرج
شاب ايطالى لعب دورا
فى حياة كاتيا
بستانى ابله

كاتيا الكسندروفنا :

سرج ميخايلوفتش :

سونيا الكسندروفنا :

ماشيا :

تاتيانا سيمنوفنا :

السيدة « ن » :

الكونتيسة « ر » :

الامير العجوز « ك » :

الماركيز « د » :

بن



الفصل الأول

زهرة تفتح

زيارة مفاجئة

كنا في حداد على وفاة والدتنا التي ماتت في الخريف الماضي ..
وقد قضينا الشتاء كله في الريف انا و « ماشا » و « سونيا » (١) ..
وكانت « ماشا » صديقة قديمة للاسرة ، اذ كانت مربيتنا
وتولت تربيتنا جميعا .. ولست ابالغ اذا قلت ان ذكرياتي
وشعوري نحوها بالمودة قديما قدم شعوري بوجودي على قيد
الحياة ..

وكانت « سونيا » شقيقتي الصغرى ..

ومر بنا الشتاء حزينا معتما في بيتنا القديم بيوكروفسكى ..
وكان الجو شديد البرودة والعواصف حتى ان الجليد جاوز ارتفاع
النوافذ ، بحيث ظلت مغطاة بصورة تكاد تكون مستمرة بالثلوج ،
وبحيث لم نستطع من ناحية اخرى ان نخرج او نتنزه في اى مكان
طيلة الشتاء ..

وكان من النادر ان ياتى لزيارتنا احد .. وحتى هؤلاء الذين كانوا
ياتون لزيارتنا كانوا لا يشيعون الفرح او البهجة في بيتنا ، فقد كانوا
يبدون جميعا بوجه حزين ، وكانوا يتكلمون بصوت خفيض كأنهم
يخشون ان يوقظوا احدا ، وكانوا يحذرون الضحك ويكثرون من
التنهيدات .. وغالبا ما كانوا يكون وهم ينظرون الى ، وخاصة حين
يرون شقيقتي المسكينة سونيا مرتدية ثوبها الصغير الاسود ..
كل شيء في البيت كان لا يزال ينم عن الموت على نحو ما ، وكان
رعب الموت وهوله يسودان جو المكان . وقد ظلت غرفة والدتي
مغلقة ، وكنت - كلما مررت على مقربة منها وانا في طريقى لانام -

(١) « ماشا » و « سونيا » كانت أسماء تدليل عائلية لمارى وصوفى

احسن بألم شديد مع اغراء لا يقاوم ، كان يدفعنى دائما الى
لقاء نظرة سريعة على هذه الغرفة المهجورة الباردة

وكنت وقتئذ فى السابعة عشرة ، وكانت والدتى تنوى فى نفس
العام الذى ماتت فيه أن ترحل لتقيم بالمدينة لتربيتى هناك . .
فكان فقدانها بالنسبة لى خسارة كبيرة . . ولكن يجب على أن اعترف
بأننى كنت أشعر فضلا عن الحزن بفراقها - وأنا الشابة الجميلة
كما كنت أسمعهم جميعا يقولون - بألم خاص لاضطرارى لثمضية
شياء آخر بالريف فى هذه الوحدة المجذبة . وقبل أن تحل نهاية
هذا الشتاء ، كان شعورى بالاسى والعزلة قد ازداد فى نفسى الى
حد أننى لم أعد أترك غرفتى أو افتح « البيانو » أو اتناول فى يدي
كتابا على الاطلاق



وحينما كانت ماشا تدعونى الى الاهتمام بشيء أو بآخر ، فاننى
كنت أرد عليها قائلة : « لا أريد . . لا أستطيع » فى الوقت الذى
كان فيه صوت يتردد فى أعماق نفسى ليسألنى قائلاً « ما فائدة
ذلك ؟ لماذا افعل هذا الشيء بينما يذهب أحسن أيام حياتى هباء .
لماذا ؟ ولم يكن عندى من جواب على هذا السؤال دائما غير الدموع !

وكان يقال لى اننى ازداد هزالا وقبحا طيلة كل هذا الوقت ،
ولكننى لم اكن أعبا بذلك . . فلماذا ، ومن أجل من ، كان يمكننى
أن اجد نفعا فى مقاومة هذا الهزال ؟ . . وكان يبدو لى أن حياتى
بأسرها لا يد أن تنقضى فى هذه الصحراء . . فى قلب هذه الحفرة
وهذا الضيق اللذين لا علاج لهما ، حيث استسلمت لمشاعرى
الخاصة الى حد اننى لا أحس بالقوة ولا بالرغبة فى أن انتزع
نفسى منها . .

ولما أوشك الشتاء أن ينتهى ، بدأت ماشا تشعر بالقلق من أجلى
. . فاستقر رأيها على أن تصحبنى فى رحلة الى الخارج ، وهو قرار
كان يمكن تحقيقه . . ولكنه كان يتطلب مالا ، فى وقت كنا لا نكاد

نعرف فيه ماذا كان دخلنا من الميراث الذى تركته والدتنا ، وكنا نترقب فى كل يوم مجيء الوصى علينا ، وكان لا بد من مجيئه ليفحص حالة أعمالنا ..

وقد جاء أخيرا خلال شهر مارس ..

وقالت لى ماشا - ذات يوم - بينما كنت أهيم كالظل بلا عمل فى كل ركن من أركان البيت دون أية فكرة فى رأسى أو رغبة فى قلبى : « الحمد لله .. هاهو ذا « سيرج ميخايوفتش » قادم للعشاء » ثم أضافت تقول بعد لحظة صمت : « ويجب أن تتزنى يا صغيرتى كاتيا (١) .. ماذا عساه يظن بك ؟ .. انه يجب كما أنتمبا الاثنتين ! »

وكان سيرج ميخايوفتش اقرب الجيران إلينا .. وكان صديقا للمرحوم والدى على الرغم من انه كان يصغره فى السن بكثير . فضلا عن ذلك التغيير المستحب الذى أحدثه وصوله فى مشروعاتنا للمستقبل ، باتاحتها الفرصة لنا لامكان مغادرة الريف ، فأنى كنت قد اعتدت منذ الطفولة أن احبه واحترمه ..

وربما كانت ماشا تنصحنى بان أتزين لانها كانت تقدر ان تغيرا آخر كان لابد ان يحدث ، وأن سيرج كان الشخص الوحيد - من بين كل معارفى - الذى كان يؤلمنى أن ابدو أمامه فى صورة غير مستحبة فى يوم من الايام ، لا لانى كنت أشعر نحوه بتعلق قديم وحسب - شأن كل فرد فى البيت ، ابتداء من ماشا وسونيا الى آخر خادم فيه - ولكن لان هذا التعلق كان يتخذ طابعا خاصا من عبارة كانت والدى قد قالتها أمامى .. قالت ذات يوم : « انه مثال الزوج الذى أتمناه لك » وفى ذلك الحين ، بدت لى فكرة كهذه غير مستساغة ، بل وغير مرغوب فيها .. إذ أن البطل الذى كنت اتخيله كان يختلف كل الاختلاف ! .. فبطلى أنا كان ينبغى أن

(١) « كاتيا » تعنى « كاترين »

يكون شابا نجيلا رشيقا .. وكان سيرج ميخايلوفتش على العكس أكبر سنا ، كان طويل القامة قوى البنية .. وعلى قدر ما كنت أستطيع أن احكم ، كان ذا مزاج لطيف وطابع محبوب للفراية . ومع ذلك ، كان كلام والدتي قد تغلغل من قبل في خيالى .. وقبل ست سنوات - وقت أن كنت فى الحادية عشرة - كان يخاطبني بغير كلفة ، وكان يلعب معى ويدعونى « بالبنفسجة الصغيرة » . ومنذ ذلك الحين ، كنت أسأل نفسى فى خوف عما عسى أن أفعل لو بدا له يوما أن يتزوجنى !

وقبيل العشاء الذى أضافت اليه ماشا طبقا من « السبانخ » وآخر من الحلوى ، وصل سيرج ميخايلوفتش ، ونظرت من النافذة فى اللحظة التى كان يقترب فيها من البيت فى عربة صغيرة ... وما كاد يبلغ المنعطف حتى أسرع بالذهاب الى الصالون ، وذلك حتى لا أظهر أننى انتظرتة على الاطلاق ، ولكننى حينما سمعت حركة فى غرفة الانتظار يتبعها رنين صوته المجلجل ووقع خطوات ماشا ، تخلى عنى صبرى وخفت بنفسى الى لقائه !

كان ممسكا بيد ماشا .. وكان يتحدث اليها بصوت مرتفع .. وما كاد يلمحنى حتى توقف عن الكلام ، ونظر الى لبضع ثوان دون أن يحيينى .. فأوقعتنى هذا منه فى حيرة شديدة ، وشعرت بالدماء تصعد الى وجنتى ! .. ثم قال لى بصوته ذى اللهجة البسيطة الحاسمة ، وهو يترك يد ماشا ويقترب منى : « كاتيا .. هل يمكن أن تكونى أنت يا كاتيا ؟ .. هل يمكن أن يتغير المرء هكذا ؟ .. كم كبرت ! .. بالامس كنت بنفسجة .. واليوم وردة متفتحة »

وبيده العريضة ، أمسك بيدي وشد عليها بقوة .. الى حد انه كاد أن يؤلمنى ، وظننت أنه سيقبلها فانحنيت أمامه ، ولكنه اخذها مرة أخرى ونظر مباشرة فى عيني بنظرتة المرححة الحازمة



كانت قد انقضت ستة أعوام لم أره فيها ، ولاحظت أنه قد

تغير كثيرا .. فقد كبر في السن ، واسمرت بشرته ، وترك سالفه ينمو ، وهو أمر كان لا يلائمه كثيرا .. ولكنه احتفظ على الدوام بنفس الخصال البسيطة ، والوجه المنبسط الامين ذى الملامح المعبرة ، وبريق عينيه الذي يشع صفاء ، وابسامته الجميلة التي تشبه ابتسامة طفل

ولم تنقض خمس دقائق حتى تخلى عن موقف الزائر البسيط ، واتخذ حيالنا موقف الضيف الذي يرفع الكلفة .. بل انه اتخذ نفس هذا الموقف حيال جميع من كانوا في البيت الذين راحوا يتسابقون في تقديم خدماتهم له ، ويظهرون له سرورهم البالغ لوصوله ..

ولم يتصرف سيرج ميخايلوفتش تصرف الجار الذي يزور منزلا بعد وفاة أم ، معتقدا ان من واجبه ان يعبر وجهه عن العطف والمواساة .. وانما بدأ - على العكس - مرحا كثير الحديث ، ولم يقل كلمة واحدة عن والدتي ، حتى انني بدأت أشعر بان عدم اكرانه هذا غريب .. بل وغير لائق من جانب رجل يرتبط بنا بصلة وثيقة .. ولكن سرعان ما أدركت ان هذا لم يكن عدم اكرانه منه ، وانه كان يضر في نفسه نية تحتم على ان اعترف له بالجميل ..

وفي المساء ، قدمت لنا ماشا العشاء بالصالون - في نفس المكان الذي اعتدنا ان نتناوله فيه أيام والدتنا - وجلست أنا وسونيا الى جوارها ، وأحضر لها « جريجوار » العجوز غليونا قديما لوالدي كان قد وجده .. وأخذ يذرع أرض الغرفة ، تماما كما كان يفعل فيما مضى ..

وتوقف جريجوار فجأة وقال لنا :

- لشد ما تغير هذا البيت تغيرا مروعا يدعو الى التفكير !

فاجابت ماشا وهي تتنهد وتضع الفطاء فوق وعاء الشاي الذي كان يقف على الموقد :

- نعم ...

ونظرت الى سيرج ميخايلوفتش ، وقد اوشكت أن تنفجر
باكية ..

وسألني سيرج قائلاً :

- انك تتذكرين والدك دون شك ؟ ! ..

- قليلاً ..

فقال في بضع وهو يلقي من فوق رأسى نظرة شاردة ، وقد بدت
على وجهه دلائل التفكير :

- كم كان يكون طيباً بالنسبة اليك لو كان والدك اليوم لا يزال
على قيد الحياة !

ثم أضاف يقول في لهجة أكثر بطئاً : « لقد أحببته كثيراً ... »

وفي تلك اللحظة ، بدا لى أن عينيه كانتا تلمعان ببريق اخاذ ..

وضاحت ماشا تقول :

- وها هو ذا الله قد اخذ والدتنا كذلك !

وفي الحال ، ألقت المنشفة على وعاء الشاي ، ثم أخرجت منديلها
وأخذت تجهش بالبكاء

وقال سيرج :

- نعم .. لقد حدثت تغيرات مروعة في هذا البيت ..

قال هذا ونظر خلفه ، ثم رفع صوته قائلاً : « اعزفي لى شيئاً
يا كاتيا الكساندروفنا » !

وقد سرني أنه طلب مني هذا الطلب في الفاظ بسيطة للغاية
تنطوي على صداقة آمرة ، فنهضت وذهبت الى جواره ..

فقال سيرج ، وهو يفتح نوتة موسيقية لبيتوفن : « خذي ..
اعزفي لى الحركة البطيئة من هذه (السوناتا) .. »

ثم أضاف قائلاً : « أريني كيف تعزفين » .. وذهب ليشرب
قدح الشاي في ركن من الصالة

ولست ادري لماذا شعرت بأنه كان من المحال أن أرفض ما طلب ،
أو أن أظهار بالرفض ، بحجة أنني لا أجيد العزف .. بل أنني
جلست - على العكس - إلى البيانو في خضوع ، وبدأت أعزف وأنا
أبدل جهد طاقتي ، بالرغم من أنني كنت خائفة بعض الشيء من
تقديره لعزفي ، خاصة وأني كنت أعرف مدى درايته بالموسيقى
وتذوقه لها ..

ونقلني هذا اللحن البطيء إلى احاديثنا التي جرت قبل تناول
الشاي ، وكأنني أتذكر شيئاً بعيداً .. وكان عزفي لأبأس به ،
وأنا واقعة تحت تأثير هذا الشعور ، ولكنه لم يشأ أن يدعني
أنتقل إلى عزف الحركة الثالثة من « السوناتا »

وقال وهو يقترب مني :

- كلا .. أنك لن تعزفيها جيداً .. قفى عند هذه المقطوعة
الأولى التي لم تكن سيئة ، وأرى أنك تفهمين الموسيقى ...
وقد غمرني هذا الاطراء المعتدل بالفرح إلى حد أنني شعرت
بالدماء تصعد إلى وجنتي ..

وكان جديداً على ، ولطيفاً جداً بالنسبة إلى ، أن يحدثني صديق
للأسرة بطريقة جادة - فيما بيني وبينه - لا كما لو كان يتحدث
إلى طفلة ، كما كان يفعل قديماً ..

وحدثني سيرج عن والدي ، فقص على كم كانا دائماً على
وفاق ، وعاشا معاً عيشة لطيفة بينما كنت منهمكة في لعبي وعاكفة
على كتيبي المدرسية .. وبدأ لي والدي لأول مرة من خلال هذا
الحديث ، ذلك الرجل الطيب البسيط الذي لم أكن قد عرفته حتى
ذلك الحين . وسألني أيضاً عما أحبه ، وما أحب قراءته .. كما
سألني عما كان في نيتي أن أفعل ، وكان خلال ذلك يوجه إلى
النصح . ولم يعد إلى جواري ذلك الرجل المرح الذي كان يحب
المزاح و « العاكسة » ، بل بدأ لي سيرج رجلاً جاداً صريحاً ودوداً ،
وشعرت نحوه في نفس الوقت باحترام لا أرادى ممزوجاً

بالاستلطاف . وكان هذا الشعور حلوا ولطيفا في نفسى ، وكنت أحس معه - أثناء الحديث - بتوتر كان يشملى على نحو لاشعورى . وكانت كل كلمة انطق بها تشعرنى بالخوف ، وكنت أتمنى كثيرا أن اكون انا نفسى جذيرة بعطفه ، وهو الذى كان الى ذلك الحين لا يعطف على الا بوصفى ابنة لوالدى !

وعادت اليناماشا بعد أن لازمتم سونيا حتى استغرقت فى النوم ، وشكت الى سيرج من خمولى الذى كان يؤدى دائما الى اننى كنت لا أجد شيئا أقوله

فقال مبتسما ، وهو يهز راسه نحوى فى عتاب :

- آه ! .. انها لم تحدثنى اذن عما هو أهم !

فأجبتة قائلة :

- ماذا كان عندى لاحدتك عنه ؟ .. أو تريد أن أقول لك اننى

كنت أتضايق كثيرا .. ولكن هذا الضيق سينتهى ..

وكان يبدو لى الآن حقا أن ماكان بى من الضيق سينتهى ، بل

انه كان قد زال بالفعل ولن يعود ... !

واستمر فى حديثه قائلا :

- ليس من الصواب الا يعرف المرء كيف يحتمل الوحدة ..

أمن الممكن أن تكونى حقا قد أصبحت آتسة ؟

فأجبتة قائلة وأنا أضحك :

- طبعا .. اننى أعتقد اننى أصبحت كذلك !

- كلا ، كلا .. أو على الاقل : انك أصبحت آتسة ماكرة لامتيش

الا ليعجب بها الناس ، وحين تكون على انفراد يتملكها الخمول

ولا يعود يعجبها شيء .. وهى تفعل كل شيء من اجل المظهر

وحسب ، ولا تفعله لذاته ..

فقلت لمجرد أن أقول شيئا :

- ان لديك هنا فكرة حسنة عنى !

فأجاب قائلا بعد لحظة صمت :

— كلا .. ان فيك شيئا من والدك ..
واحدثت نظرة سرج الطيبة اليقظة مرة أخرى سحرها في نفسى
واشاعت في اضطرابا غريبا ..
وفي تلك اللحظة فقط ، لاحظت أن خلال هذا الوجه الذى كان
يبدو مرحا لأول نظرة ، وتحت هذه النظرة التى ينفرد بها وحده
والتى يبدو للمرء لأول وهلة أنه لا يقرأ فيها الا الصفاء .. لاحظت
ان تفكيرا عميقا كان يمتزج في اعماق نفسه بمسحة من الحزن ، وأن
ذلك كان يزداد بمرور الوقت شدة ووضوحا !
واستطرد سرج يقول :

— ينبغى الا تتضايقى .. فلدك الموسيقى التى تفهمينها، ولدك
الدراسة .. والكتب ، وامامك حياة بأسرها .. وانت الآن في
اللحظة التى ينبغى أن تنأهبي فيها للحياة بحيث لا تجددين مجالا
للشكوى منها في المستقبل .. وان لم تفعل ذلك ، فبعد عام يكون
قد فات الأوان

كان سرج يحدثنى هكذا على نحو مايفعل الوالد أو العم ..
وكنت أدرك أنه كان يبذل جهدا مستمرا ليقبى دائما في مستواى ..
وكان هذا يصدمنى بعض الشيء ، وكان يحز في نفسى أن يعتقد
اعتقادا راسخا بأننى أدنى منه ادراكا ومعرفة .. ولكن كان يبدو
لى لطيفا من ناحية أخرى أن يعتقد أن من واجبه أن يبذل هذا
الجهد في سبيل توجيهى وأرشادى ..
وانقضت بقية السهرة في حديث بينه وبين ماشا عن
الإعمال ..

وقال لى وهو ينهض أخيرا ويقترب منى ، ثم يمسك بيدي :
— والآن .. طاب مسأوك ياعزيزتى كاتيا ..
وسألته ماشا قائلة :
— متى نراك ؟
فقال وهو لا يزال يمسك بيدي :

– فى الربيع .. اننى راحل الان الى «دانيلوفكا» ، حيث توجد
املاكتنا الاخرى .. وسأشرف – بعض الوقت – على العمل هناك ،
وأدير ما أستطيع أن أدبره ، ثم أمر بموسكو بعد ذلك .. وفى
الصيف يستطيع كل منا أن يرى الاخر ..
– ولماذا هذا السفر لوقت طويل ؟

قلت له ذلك وقد ألمنى نبأ سفره .. اذ كنت أمل فى الواقع أن
أراه كل يوم ، وشعرت فجأة بصدع شنيع فى قلبى .. ومن المحتمل
أن يكون ذلك قد بدا فى عيني ، وفى نبرات صوتى ..
وقال لى سيرج بلهجة بدت لى راكدة وباردة أكثر مما ينبغى :
– هيا .. اشغلى نفسك أكثر من هذا ، واطردى الكتابة
رأسام ..

ثم أضاف قائلاً رهو يقلت يدى دون أن ينظر الى : « سوف
أراك مرة اخرى فى الربيع .. »

وفى المدخل ، حيث تبعناه لتوديعه .. أسرع بارتداء معطفه ..
ومرة اخرى بدا عليه أنه يتحاشى أن ينظر الى .. فقلت فى نفسى :
« انه يكلف نفسه بهذا جهداً لا طائل تحته .. فهل من الممكن أن
يفكر – وهو ينظر الى – فى أن يسعدنى ويسبب لى سروراً عظيماً؟
انه رجل ممتاز ، وطيب للغاية .. هذا كل ما فى الامر »

ومع ذلك ، فقد لبثت انا وماشا وقتاً طويلاً دون أن ننام ، ونحن
نتابع الحديث ، لانه وانما عن الكيفية التى سنمضى بها الصيف ،
وعن المكان والطريقة التى سنقضى بها الشتاء .. انها مشكلة
ضخمة ! لماذا ؟ .. لقد كان يبدو لى فى بساطة ووضوح أن الحياة
يجب أن تكون سعيدة حافلة بأسباب السعادة .. وبالنسبة
للمستقبل ، كان يستحيل على أن أتصور شيئاً آخر غير السعادة ،
كما لو كان مقرنا المعتم القديم فى بوكروفسكى قد امتلأ فجأة
بالحياة والنور

الفصل الثاني

أشجار الكرنه

نشوة الحب

واقبل الربيع .. وتبدد ما كان قد ألم بى من الضيق ، لتشيع
فى نفسى أحزان الربيع الخاملة التى تثيرها الامال المجهولة والرغبات
المكبوتة .. ومع ذلك ، لم تعد حياتى كما كانت فى بداية الشتاء ،
اذ أصبحت اعنى بسونيا وبالموسيقى والدراسة ، وكنت اذهب الى
الحديقة حيث كنت أهيم وقتا طويلا ، طويلا جدا ، وأنا وحيدة
خلال الممرات ، وكنت اجلس فى بعض الاحيان على مقعد من المقاعد
.. والله يعلم ماكنت أفكر فيه وماكنت آمله وأتمناه !

وكنت اسند خدى فى بعض الاحيان الى راحة يدى ، وأتكىء
على نافذة غرفتى ، وخاصة فى الليالى القمرية ، وأظل هكذا حتى
الصباح .. وأحيانا أخرى ، كنت أنزل - دون أن تعلم ماشا - الى
الحديقة ، وأنا أرتدى ثياب النوم ، ثم أفر الى البركة وسط الندى ،
وقد ذهب ذات مرة حتى الحقول .. او كنت أنتزه وحدى الليل
بطوله فى أرجاء الحديقة الكبيرة !

والآن ، يصعب على ان أتذكر - او على الاقل ان افهم - تلك
الاحلام التى كانت تراود خيالى وتملؤه فى ذلك الحين .. وحتى لو
استطعت ان أتذكرها ، فانه يصعب على ان اصدق ان تلك الاحلام
كانت احلامي ، نظرا لشدة غرابتها وتجاوزها حدود حياتى
الواقعية !



وعاد سيرج ميخايلوفتش من جولته فى أخريات شهر مايو كما
وعدنى ..

وجاء لرؤيتنا ذات مساء ، بينما كنا لا نتوقع مجيئه على
الاطلاق .. وكنا نجلس يومئذ فى شرفة البيت ونأهب لتناول

الشاي .. وكانت الحديقة بأسرها قد اكتست ثوبا من الخضرة ،
 وفي كل موضع في بوكروفسكى كانت البلابل قد أقامت مساكنها
 بين اغصان الشجر وأوراق النبات . وهنا وهناك ، كانت كتل
 كثيفة من الزهر ترفع رءوسها ذات الالوان البيضاء والبنفسجية
 وهى توشك ان تتفتح . وكانت اوراق الاشجار فى الممر الذى تقوم
 على جانبيه اشجار البلوط تبدو لامعة شفافة تحت اشعة الشمس
 الغاربة . وكانت الظلال المنعشة تمتد على طول الشرفة ، بينما
 كان ندى المساء الغزير يغمر الاعشاب . ومن الغناء الذى يقسع
 خلف الحديقة ، كانت تسمع آخر ضوضاء النهار وأصوات الاغنام
 وهى تعود الى حظيرتها ..



وكان « نيكون » ، المجنون المسكين ، يمر - فى تلك اللحظة -
 اسفل الشرفة وهو يحمل برميلا .. وفجأة ، انبثق سيل من الماء
 البارد من خرطوم « الرش » ، وانطلق ليرسم دوائر سوداء على
 الأرض التى حرثت حديثا حول سيتقان شجر « الدهليا » . وامامنا
 فى الشرفة فوق غطاء ناصع البياض ، كان ابريق الشاي يلتمع وهو
 يقف فوق الموقد ، وقد انبعث منه بريق ساطع ، يحيط به وعاء
 من المربى وبعض الكعك والحلوى .. وكانت ماشا تفنسل أقساح
 الشاي بيديها البضتين كربة بيت ممتازة . أما أنا ، فكنت جائعة
 ... فلم أنتظر الشاي ، والتهمت رغيفا بأكمله مدهونا بطبقة
 كثيفة جدا من القشدة الطازجة .. وكنت ارتدى فى ذلك المساء
 « بلوزة » من التيل ذات اكمام مفتوحة بعض الشيء ، وأغطى رأسى
 بمنديل كنت الف به شعرى المبتل ..

وكانت ماشا أول من لمحت سيرج من خلال النافذة ، فصاحت
 تقول :

- آه ! هذا سيرج ميخايلوفتش .. لقد كنا نتحدث عنك منذ
 لحظات ..

فنهضت لأذهب لإبدال ملابسى ، ولكنه فاجانى فى نفس اللحظة
التي كنت اتجه فيها نحو الباب ، وقال وهو ينظر مبتسما الى
راسى والى المنديل الذى كان يقطيه :

- هيا ياكاتيا .. ليست هناك رسميات فى الريف ، وانك
! تلتزمين مثل هذا التشدد امام جريجوار ، واريد أن أكون مثله
بالنسبة اليك ...

ولكن .. كان يبدو لى واضحا أن سيرج لم يكن ينظر الى كما
يفعل جريجوار ، وقد حيرنى ذلك وأشاع فى نفسى الاضطراب
فاجبته قائلة وانا ابتعد :

- سأعود فى الحال

فصاح قائلا وهو يتتبع خطاى :

- أى ضرر فى ذلك ؟ .. انك تبدين هكذا كفلاحة شابة

وقلت فى نفسى ، وانا أصعد الدرج مسرعة لإهدل ملابسى :

- لشد ماكانت غريبة نظرتة الى ! وأخيرا .. نحمد الله على
أنه قد أتى وسنكون أكثر مرحا ..

والقيت على نفسى نظرة فى المرآة ، ثم انطلقت انزل فى سرعة وقد
تملكنى السرور . وبلغت الشرفة وأنا لاهثة الانفاس دون أن أخفى
شغفى ..



كان سيرج جالسا الى جوار المائدة يتحدث الى ماشا عن
الاعمال . وحين لمحنى ، التقى الى بابتسامة خفيفة ، ثم تابع الحديث
.. وكانت اعمالنا - على حد قوله - فى حالة مرضية للغاية . ولم
يعد أمامنا الا ان تقضى الصيف فى الريف ، ثم يكون فى وسعنا
أن نرحل بعد ذلك الى مدينة بطرسبرج أو الخارج لتعليم سونيا
وقالت ماشا :

- كم يكون جميلا لو أتيت معنا الى الخارج ، فاننا اذا رحلنا
وحدنا فسنكون كأننا فى غابة ..

فأجاب وهو يمزج بين الجد والهزل :
- آه ! .. ليت الله يمكنني من ان اطوف معكن حول العالم !
فقلت حينئذ :

- ليكن ذلك .. هيا ! لندر معا حول العالم !
فهز رأسه مبتسما ثم قال :

- ووالدتي ؟ ... واعمالى ؟ ... هيا ! دعينا من هذا وقصى
على كيف قضيت الوقت .. ايمكن ان تكوني قد اکتأبت أيضا ؟
وقصصت على سيرج اننى عرفت بدونه ان أشغل نفسى ، والا
اتضايق ، وأكدت له ماشا ذلك .. فأننى على ووجه الى كلمات
ونظرات مشجعة وكأننى طفلة ، وكان له فعلا الحق في ذلك . وبدا لى
من المناسب ان أخبره تفصيلا وبصراحة تامة بكل ما فعلته من خير ،
واعترفت له بكل ما كان يمكن ان يستحق تانيبه وكأننى أعترف
امام قسيس !



وكانت الامسية من الجمال بحيث بقينا فى الشرفة بعد ان رفعت
مائدة الشاى .. وكان الحديث ممتعا الى حد اننى لم الاحظ ان
ضوضاء البيت كانت تتلاشى من حولنا دون ان اشعر .. ومن كل
مكان ، كانت الروائح النفاذة تنبعث من الازهار ، وكانت قطرات
الندى الغزيرة تفرق الاعشاب ، وكانت البلبل تفرد على مقربة
منا وهى تلوذ بأغصان الورود الكثيفة .. ثم تعود الى الصمت
حين تسمع أصواتنا .. وكانت السماء المرصعة بالنجوم تبدو كما
لو كانت تهبط لتقترب من رءوسنا ..

ولم افطن الى هبوط الليل الا حينما سمعت فجأة حفيف
وطواط مكتسوم ، كان يرفرف مذعورا حول رداى الابيض ..
فالتصقت بالجدار وانا على وشك ان اصيح ، غير ان الطواط فر
من تحت سقف الشرفة وانطلق يهيم فى ظلام الحديقة ..

وقال سيرج ميخايلوفتش ، وهو يقطع علينا الحديث :

— كم أحب بيتكن وارضكن في بوكروفسكى .. ان المرء لا يسهه
الا ان يتمنى البقاء في هذه الشرفة كل حياته !

فاجابته ماشا قائلة :

— حسنا .. فلتبق فيها اذن ..

فقال سيرج :

— آه ! ابقى ؟ ان الحياة لا تتوقف !

فعادت ماشا تساله قائلة :

— لماذا لا تتزوج اذن ؟ .. انك خليك بأن تكون زوجا ممتازا

فقال وهو يبتسم :

— لماذا ؟ .. لان الناس لم يعودوا — منذ زمن طويل — يعتبروننى

رجلا يصلح للزواج ..

— ماذا ؟ .. فى السادسة والثلاثين من عمرك وتزعم انك تعبت

من الحياة ؟

— نعم ، بالتأكيد .. بل اننى متعب الى حد اننى لم أعد اطلب

سوى الراحة .. ولكى يتزوج المرء ، يجب أن يكون لديه ما يقدمه

غير التعب

وأوما الى براسه واستطرد يقول : « هيا .. اسألى كاتيا ..

فهى بحق ذلك الشخص الذى يجب أن نزرجه ، ويكون دورنا

نحن أن نعلم بسعادتها مع من تتزرجه ! »



ولمست فى نبرات صوته حزنا دينا ممزوجا ببعض التوتر .

وساد الصمت بيننا لحظة ، ثم قال سيرج وهو يتجه نحو

المائدة :

— تصورا .. لو اننى تزوجت فجأة فتاة شابة فى السابعة عشرة

ككاتيا الكسندروفنا ! .. ان هذا كان خليقا بأن يكون حادثا

مؤسفا ! حقا انه مثل جميل ينطبق تماما على هذا الظرف ! ..

واخذت أضحك فى انطلاق ، وان كنت لم استطع أن أدرك على

الاطلاق لماذا كان يبدو مسرورا هكذا ، ولا هذا الظرف الذى كان
يعنيه !

والتفت الى سيرج وقد بدا عليه انه يمزح ، ثم اضاف قائلا :
« حسنا ! ضعى يدك على قلبك وقولى لى الحقيقة .. أفلا تكون
كارثة كبيرة بالنسبة اليك أن تربطى حياتك برجل عجوز فاتزمنه،
وأصبح لا يريد الا البقاء حيث هو .. بينما أنت - يعلم الله -
تودين أن تجرى هنا وهناك وفق هواك ؟ »

ولزمت الصمت ، وقد ألم بى الضيق ، ولم أدر بماذا اجيب !
فضحك سيرج ثم قال : « اننى لم آت لاطلب يدك .. ولكن ، قولى
لى حقا اذا كنت تحلمين بهذا الزوج ، وانت تتزهين فى المساء
خلال ممرات الحديقة ، وان هذا الزواج لا يكون مصيبة كبرى ؟ »
فشرعت أقول :

- ليس الى هذا الحد ...

فقاطعتنى قائلا :

- وانه لن يكون كذلك خيرا كبيرا !

- نعم .. ولكنى قد اكون مخطئة ...

- هانتذى ترين يا ماشا انها على حق .. وانى لمعجب

بصراحتها ومسرور تماما لان هذا الحديث قد دار بيننا ، وان كنت

أعترف بأن زواجها كهذا يكون بالنسبة الى كارثة مابعدھا كارثة ..

فقال ماشا وهى تتنهد :

- يالك من رجل فريد ! انك حقا لم تتغير كثيرا ..

وغادرت ماشا الشرفة لتأمر بتقديم العشاء ، فلبشنا صامتين ..

وكان كل شىء من حولنا صامتا كذلك ..



وكان الليل الوحيد قد استأنف تفريده من جديد .. ولم يكن
تفريده فى هذه المرة تفريد بداية المساء المتقطع المتردد ، بل تفريد
الليل الهادئ البطيء الذى كانت نعماته تملأ الحديقة بأسرها ..

وكان هناك بلبل آخر قد أخذ يرد - لأول مرة - على زميله الشيط من نهاية الحديقة .. وحينئذ ، صمت البلبل القريب وكأنه كان يستمع اليه ، ثم عاد الى التغريد في صوت صдах كان صداه يتردد في الهواء .. وكان صوتهما يترنم في هدوء بالغ وسط عالم الليل هذا الخاص بهما - والذي كنا فيه كالفرياء ! .. وكان البستاني ذاهبا في تلك اللحظة الى غرفته لينام ، وكان وقع حذائه الضخم يدوى في ممرات الحديقة وهو يبتعد رويدا رويدا .. وفجأة ، سمعنا صفيرا تردد مرتين آتيا من ناحية الجبل ، ثم عاد كل شيء الى الصمت فلم نعد نسمع حتى حفيف الاشجار ..

وهبت نسمة عابرة حملت الينا مزيدا من عبر الازهار .. وكان السكون يحيرنى ، وكنت لا أدري ماذا اقول . ونظرت الى سيرج ، وكانت عيناه تحدقان في وهما تلمعان في الظلام ، فتمتم يقول :
- ان الحياة طيبة حقا في هذا العالم !

ولست أدري لماذا تنهدت حينما سمعت هذه الكلمات ، فعاد سيرج يقول :

- ماذا اذن ؟ ..

فرددت عبارته قائلة :

- نعم .. ان الحياة طيبة في هذا العالم ..

وساد بيننا الصمت من جديد .. ومرة اخرى ، شعرت باننى في ضيق ، وجال بخاطرى اننى آلمته وانا اواقفه على انه عجوز ، وكنت أريد أن³واسيه ولكننى لم اكن اعرف كيف افعل ذلك ..

وفجأة ، نهض سيرج واقفا وقال :

- ولكن ... وداعا ! ان والدتى تنتظرنى للعشاء .. ولم أكد

أراها اليوم ..

- اننى كنت اود ان اعزف لك « سوناتا » اخرى

فاجابنى قائلا في برود ، او بدا لى على الاقل ان نبرات صوته كانت كذلك :

– ليكن ذلك في مرة أخرى ..
ثم تقدم خطوة ، وقال وهو يأتي بحركة بسيطة :
– وداعا !..

وبدا لي حينئذ – أكثر من أى وقت آخر – اننى كنت قد آلمته ،
فحزنت لذلك كثيرا .. ورافقته أنا وماشا حتى أسفل سلم
الشرفة ، ثم مكثنا في الغناء ننظر ناحية الطريق الذى اختفى فيه .
وماكاد يتلاشى وقع سنابك جواده حتى أخذت اتنزه حول الشرفة
واتأمل حديقة البيت . ولبثت طويلا اتخيل كل ماكانت نزواتى
تجعلنى اتخيله ، وأنا واقفة وسط الضباب الذى كانت تسبح فيه
ضوضاء الليل !

وعاد سيرج الى زيارتنا مرة ثانية وثالثة ، وزالت آخر الامر
تلك الحيرة التى شعرت بها خلال الحديث الغريب الذى كان قد دار
بيننا فجأة وعلى غير انتظار ، ولم تظهر هذه الحيرة بعد ذلك ..

وظل يحضر لرؤيتنا – خلال الصيف – مرتين أو ثلاث مرات
كل اسبوع ، فالفته الى حد أنه حينما كان يعطيل الانقطاع عن
الحضور ، كان يبدو لى عسيرا أن أعيش هكذا وحدى .. وكنت
أغضب لذلك في قرارة نفسى

وما لبث سيرج ان أصبح بالنسبة الى صديقا ودودا ، يتقصى
شئونى ويشير فى نفسى اجابات صريحة للغاية ، ويسدى الى النصح
ويزجى التشجيع ، وينهرنى فى بعض الاحيان ، ويوقفنى اذا
ما اقتضى الامر ذلك ..

ولكن .. على الرغم من جهوده هذه ليظل فى مستواى ، كنت
أشعر بأن هناك عالما بأسره يكمن فى شخصه كنت غريبة عنه ، وكان
لايرى أن يقهمنى فيه . وكان هذا يجعلنى – فوق كل شيء –
أعتبره أكثر نضجا منى ، ويجذبنى اليه فى نفس الوقت . وكنت
أعرف من ماشا والجيران انه كان يعانى بعض مضايقات من مشاكل

خاصة بالنبلأ . . . عدا عنايته بوالدته العجوز التى كان يقيم معها،
وعدا أعماله المتعلقة بشئون الزراعة واشرافه علينا . . ولكنى لم
استطع قط أن اصل الى معرفة موقفه من نفسه ووجهة نظره فى هذا
الموقف ، ولم استطع كذلك أن أعرف ماذا كانت مشاريعه وآماله .
وحينما كنت أحاول أن أوجه الحديث ليدور حول هذه الشئون ،
كان يقطب جبينه بطريقة خاصة وكأنه كان يريد أن يقول : « كفى !
أتوسل اليك . . ماذا يهيك أن تعرفى هذا ؟ » . . ثم يغير مجرى
الحديث الى موضوع آخر . . !

وكان ذلك يصدمنى فى بادئ الامر ، ولكننى الفت ذلك الى حد
اننا اصبحنا لا نتحدث أبدا الا فيما يخصنى ، وانتهى بى الامر
بأن وجدت ذلك طبيعيا جدا . .

وشعرت كذلك فى البداية بشيء من عدم الرضا ، بينما وجدت
بعد ذلك - على العكس - شيئا من السحر ، وأنا المس عدم المبالاة
التام الذى يكاد يبلغ حد الاحتقار لمظهرى الخارجى ، ولم أستطع
أبدا أن أفهم من نظراته ولا من كلماته أنه كان يجدنى جميلة ، بل
على العكس . . كان يقطب حاجبيه ويأخذ فى الضحك حينما كان
يقال أمامه اننى لست دميمة . . بل لقد كان يروق له أن يبين
عيوب وجهى ، وأن يفيظنى عن هذا الطريق . .

وكانت الثياب « الموضة » و « تسريحات » الشعر التى كانت
ماشا تحب أن تزيننى بها أيام العيد تثير سخريته ، وكان ذلك
يحزن ماشا كثيرا ، كما كان يحيرنى تماما - فى أول الامر - وكنت
على حق فى ذلك !

وكانت ماشا قد أيقنت ، فيما بينها وبين نفسها ، اننى كنت
أعجب سيرج ميخايلوفتش ، ولكنها لم تستطع أن تفهم لماذا
لا يفضل أن تبدو المرأة التى تعجبه فى أتم زينتها . ولكننى سرعان
ما عرفت ماذا يريد . . انه كان يريدنى بسيطة فى كل شيء . . فى

الملبس ، والزينة ، وتصفيف الشعر ، فحرصت على تحقيق ما يريد . . . في الوقت الذي لم اكن استطيع فيه - انا نفسى - ان اكون بسيطة مع نفسى !

كنت اشعر انه يحبني .. ولكن ، ترى هل كان يحبني كطفلة أم كامرأة ؟ ولم اكن الى ذلك الوقت قد القيت على نفسى هذا السؤال ، وكان هذا الحب غاليا لدى وعزيزا على .. ولما أحسست بأنه كان يعتبرنى احسن فتاة في العالم ، صار يحلو لنفسى ان اتمنى ان يستمر هذا الزيف في تعميته . والحق اننى كنت أخدعه على الرغم منى .. ولكننى كنت وانا أخدعه اشعر بانى انطور الى احسن ، كما كنت اشعر بأن من الافضل ان اكشف له عن بعض الجوانب الطيبة في نفسى ، من ان اكشف له عنها في مظهرى .. فشعرت ، ويدائى ، ووجهى ، ومشيتى - مهما بلغت من جمال أو قبح - فقد استطاع ان يقدرها بنظرة واحدة ، وكان يعرف تماما اننى - حتى ولو كنت أقصد خداعه - لن استطيع ان اضيف شيئا الى مظهرى الخارجى . وكان سيرج ، على العكس ، لا يعرف حقيقة روحى .. لانه كان يحبها ، ولان روحى كانت في تلك اللحظة بالذات في أوج نموها وتفتحها .. وأخيرا ، لانه كان من اليسير على ان أخدعه في مثل هذا المجال ، وكنت أخدعه فيه حقا ..

وكم كان شعورى نحوه لطيفا محببا حينما فهمت هذا كله حق الفهم !.. فهذا الاضطراب بلا سبب ، وهذه الحاجة الى الحركة التى كانت تجثم فوق صدرى على نحو ما .. كل ذلك قد اختفى تماما . وكيفما كانت نظرته الى : فى وجهى ، او من الجانب ، وانا جالسة ، او واقفة .. وسواء اكان شعرى منشورا أو مصففا ، فانه كان ينظر الى دائما فى سرور ، وكان يعرفنى من قمة رأسى الى اخصص قدمى . وقد قدرت انه كان مسرورا منى كما كنت مسرورة منه . واعتقد انه لو قال لى فجأة كالاخرين - وعلى غير عادته - اننى احببك .. فان ذلك كان خليقا بأن يفضبنى بعض الشيء !

ولكن ، على العكس ، يا للسرور والصفاء اللذين كنت أشعر بهما
في أعماق نفسي حينما كان يسمع كلاما يخرج من فمى .. فيتأملنى
في اهتمام ، ويقول في انفعال وبلهجة كان يحرص على أن تعجبنى :

— نعم ، نعم .. ان فيك شيئا ! .. انك فتاة طيبة ، ومن راجبى
أن أقول لك ذلك ..

ترى لماذا كنت اتقبل هذا الاطراء الذى كان يملأ قلبى سرورا
وكبرياء ؟ اكان ذلك تارة لاننى قلت اننى أستلطف حب جريجوار
العجوز لحفيدته ؟ أم تارة أخرى لاننى انفعلت لحد البكاء لاننى اقرا
شعرا او رواية ؟ أم لاننى فضلت «موزار» على «شولوف» ؟ وكان
ذلك الحدس غير المؤلف هو الذى يمكننى من ان اخمن ما هو
خير ما يحبه سيرج .. كان ذلك الحدس بالنسبة الى مشارا
للدهشة .. ذلك اننى لم اكن اعرف بعد بطريقة ايجابية ما هو
خير ، وما يحبه . وكانت اكثر عاداتى السابقة وميولى لا تروق
له ، وكانت تكفى حركة لا تكاد تلاحظ من حاجبيه او نظرة سريعة
منه لافهم ان ما أريد ان أفعله كان لا يعجبه .. وكان يكفى ان ينم
وجهه عن الشفقة المزوجة بالاحتقار لاعتقد على الفور اننى لم أعد
أحب ما كنت قد أحببته .. وكنت أستطيع ان اعرف سلفا
ما سيقوله لى ، لو أنه جال بخاطره ان يسدى الى نصيحة ، او يبدي
ملاحظة عن امر من الامور



لقد كان سيرج اذا اراد ان يسألنى عن شيء ، وجه الى نظرة
.. وكانت نظرتة تنتزع منى عادة الفكرة التى يريد ان يعرفها .
ولم تعد كل افكارى وقتئذ ، وكل مشاعرى ملكا لى .. بينما
اصبحت افكاره ومشاعره فجأة هى نفس افكارى ومشاعرى ..
ذلك أنها كانت تنفذ الى حياتى وتجعلها باسمه مشرقة ..

وبطريقة غير محسوسة ، بدأت أرى كل الاشياء من حولى ،
وماشا ، وخدمى ، وسونيا ، ومشاغلى بعينين أخريين .. وبدت

لى فجأة تلك الكتب ، التى كنت أقرأها لاقتل ما بى من الضيق ،
اعظم سحر ممتع فى الحياة . وذلك لسبب واحد ، وهو أننا كنا
نتحدث معا عن الكتب ، وكنا نقرأ معا كل ما كان يحضره منها الى
.. وكنت قبل ذلك انظر الى عملى مع سونيا والى الدروس التى
اعطيها لها على انها واجب مؤلم ، كنت أحرص على تأديته بدافع
من مجرد الشعور الواجب .. أما الآن ، وقد أصبح سيرج يأتى
أحيانا ليحضر معنا هذه الدروس ، فقد أصبحت أشعر بسرور كبير
وأنا أرقب عن كتب ذلك التقدم الذى كانت تسجله شقيقتى

وكان يبدو لى مستحيلا فيما مضى ، أن أحفظ مقطوعة موسيقية
بأكملها .. أما الآن وأنا أعرف انه سيستمع اليها وقد يصفق لها ،
فلم أعد أتردد فى ان أكرر عزفها أربعين مرة متتالية ، حتى انتهى
الامر بماشا المسكينة أن تضع فى أذنيها قطعة من القطن ، فى الوقت
الذى كنت لا أشعر فيه أنا بأقل ملل أو ضيق .. وأصبحت أناملى
تعزف هذه « السوناتا » القديمة بطريقة مختلفة تماما ، وأفضل
بكثير مما كنت أفعل من قبل ..



وحيث فقط ، أدركت انه لم يكن هناك ما يضطر ماشا ان
تكون لنا بمثابة الام غير حبا لنا .. والحق انها كانت لنا أيضا
بمثابة الصديقة التى تحقق جميع نراتنا .. كما أدركت كل
تضحيات هذه المخلوقة الودود ، وتفانيها ، ومدى التزاماتى
نحوها .. حتى أننى ازدددت حبا لها لهذا السبب . وكان سيرج قد
علمنى أيضا أن ارعى خدمنا وفلاحينا ومعاونينا ، فأصبحت أنظر
اليهم جميعا بمنظار جديد ..

والغريب فى الامر أننى كنت أعيش بين هؤلاء جميعا .. رغم أننى
بلغت السابعة عشرة من عمرى .. وأنا أحس بأننى غريبة عنهم تماما
وكاننى أعيش مع اناس لم يسبق لى أن رأيتهم من قبل .. ولم
أكن قد فكرت مرة واحدة انهم مخلوقات آدمية تشعر مثلى بالحب

والرغبة والندم .. وانقلبت فجأة حديقة بيتنا وغاباتنا ومزارعنا ،
التي كنت أعرفها جيدا منذ أن ولدت ، أشياء جديدة على .. وبدأت
أنظر اليها كما لو كنت أراها لأول مرة ، وأدرك كل ما فيها من
جمال ..

وكان سيرج على حق دائما حينما كان يقول انه ليس في الحياة
سوى مصدر واحد للسعادة ، هو أن يعيش المرء من أجل الآخرين .
وكان ذلك يبدو لى غريبا ، وكنت لا أفهمه .. ولكن هذه العقيدة
تسللت رويدا رويدا الى أغوار نفسى . وفى كلمة واحدة : فتح
سيرج أمامى آفاقا جديدة لحياة حافلة بالمتع فى الحاضر ، دون أن
يغير شيئا من حياتى السابقة ، أو يضيف اليها شيئا ، الا أن ينمى
فى نفسى احساسيسها الطيبة ومشاعرها النبيلة ..

وكان كل شيء من حولى قد ظل منذ طفولتى مطمورا غامضا ..
وقد بدا لى الآن كأنما كان ينتظر أن أحس بوجوده ليتحدث الى
روحى ويفررها بالسعادة ..

وكثيرا ماكان يحدث خلال هذا الصيف ، أن أصعد الى غرفتى
وارتمى على سريرى - وهو المكان الذى كانت تراودنى فيه هواجسى
القديمة المتعلقة بالربيع - وأشعر باننى ممثلة برغبات المستقبل
وأماله . وكنت أشعر الى جوار هذا باضطراب آخر كان يحتضننى ،
مصدره سعادتى الراهنة .. كنت لا أستطيع أن أنام ، فأنهض
وأجلس على سرير ماشا وأقول لها اننى سعيدة للغاية ..
وحينما ا تذكر ذلك الآن ، أجد انه كان عبثا أن أقوله لها لانها كانت
تستطيع ان تراه بنفسها .. وكانت ماشا تقول لى انها هى ايضا
لم يعد لديها ما يقلقها ، وانها كانت سعيدة جدا .. ثم تقبلنى فى
حنان .. وكنت أصدقها لانه كان يبدو لى أن من العدل ومن
الضرورى أن يكون الكل سعداء .. ولكن ماشا كان فى وسعها أن
تفكر فى النوم ، وكانت تستطيع حتى أن تتظاهر بالغضب وأن
تطردنى من سريرها لتنام .. اما أنا فقد كنت - على العكس -
أقلب فى نفسى لوقت طويل آخر جميع الاسباب والظروف التى

تثير في نفسى الشعور بالسعادة .. وكنت انهض في بعض الاحيان
من جديد ، وأصلى مرة أخرى ، وأدعو الله من كل قلبى ، وأشكره
من اعماقى شكرا جزيلاً على السعادة التى غمرنى بها ..



كان كل شىء فى غرفتى هادئاً ، عدا انفاس ماشا التى كانت تتردد
بانظام أثناء نومها ، ودقات ساعتها الموضوعة الى جوارها . وكنت
انقلب فى فراشى وأنا اتمتم بضع كلمات ، وأقبل الصليب المعلق فى
رقتى . وكانت النوافذ والابواب موصدة .. وكنت أتمنى الا ابرح
هذه الغرفة أبداً ، والا يشرق الصباح .. وذلك حتى لا يتبدد هذا
الجو المشبع بالصفاء والمتعة الروحية .. وكان يبدو لى أن احلامى
وأفكارى وصلواتى ودعواتى كانت نسمات مشحونة بأرواح تعيش
معى ، وترفرف حول سريرى ومن فوق رأسى ..

لقد كانت كل فكرة من أفكارى هى من أفكار سيرج ، وكان كل
شعورى من شعوره . وكنت لا ادرك بعد ما هو الحب ، وكنت
أظن أن الحب يمكن أن يكون دائماً هكذا ، وأن مثل هذا الشعور
يمنحه المرء بلا مقابل



الفصل الثالث

موسم الحصاد

لمن أكرس نفسى ؟

وذاث يوم ، وكان ذلك فى موسم حصاد القمح . . ذهبت بعد العشاء مع ماشا وسونيا لنجلس فى الحديقة على مقعدنا المفضل تحت ظلال أشجار « التليو » على قمة ربوة ، كنا نستطيع من فوقها ان نكتشف الحقول والغابات . وكانت قد انقضت ثلاثة ايام لم يات فيها سيرج لزيارتنا ، وكنا ننتظره خاصة فى ذلك اليوم لانه وعد « الخولى » بالحضور ليلقى نظرة على المحصول . .

وفى نحو الساعة الثانية ، لمحناه يمر على مرتفع يتوسط حقلا من حقول الشوفان ، فابتسمت لى ماشا ابتسامة ذات مغزى ، وأمرت باحضار بعض الخوخ والكرز اللذين كان يحبهما كثيرا . . ثم تمددت على المقعد واستسلمت لسنة من النوم . . وانتزعت غصنا من اغصان « التليو » واخذت « أهوى » به على ماشا ، وأنا اواصل القراءة . . وكنت التفت ورائى بين لحظة واخرى لارقب الطريق الذى كان لابد ان يصل منه . اما سونيا ، فقد كانت جالسة على جذع شجرة مقطوع تعد لدميتها مهذا من الخضرة . .

كان النهار شديد الحرارة . . وكانت الغيوم تكون دائرة فى الافق بعد ان اظلمت فى الصباح ، وكان الجو يندر بالعاصفة . . وقد اشاع ذلك فى نفسى اضطرابا شديدا ، كما هى عادتى - على الدوام - فى مثل هذه الحالات . ولكن السحب اخذت تتفرق منذ الظهر ، وبدأت الشمس تظهر وسط سماء صافية ، وصار الرعد لا يزعج الا فى نقطة واحدة . . ويظهر بريقه فى قلب سحابة ثقيلة بعيدة كانت تمتزج بغبار الحقول عند ملتقى السماء بالارض . . واصبح من الواضح - بالنسبة الينا على الاقل - اننا لم نعد نخشى انطلاق المواصل فى ذلك اليوم . . وكنا نسمع حيننا ، انينا بطيئا طويلا

صادرا من عربة محملة بالقمح ، ونسمع حيناً آخر صوت هزات عربات الركاب التي كانت تلتقى ثم تفترق ، وخطوات الحمالين وأنساقهم وهم يسرعون الى جوار مركباتهم وقد تطايرت ذبول قمصانهم في الهواء .. كنا نسمع ذلك ونراه في هذا الجزء من الطريق الذي كنا نستطيع ان نتبينه من مكاننا فوق الربوة . وكان الفبار اكتيف لا يتطاير ولا يسقط على الارض ، ولكنه يظل عالقا بأسوار الحديقة المعشبة وبأوراق الشجر الشفافة ..

وبعيدا بعض الشيء ، عند مخزن الفلال ، كانت تنبعث أصوات عربات أخرى .. وهناك ، كانت حزم القمح الذهبية تكدس الى جوار أرض فضاء مسورة .. وسرعان ما لمحت عيناي أكواما هرمية تحوم حولها هامات الفلاحين ..

وكان الحر والفبار يغمران كل مكان الا ركننا الصغير المفضل في الحديقة . ومع ذلك ، كان حشد من العمال يروح ويفدو هنا وهناك وهو يثرثر ويمزح وسط هذا الطقس الخائق تحت نار الشمس المحرقة . وأخذت أتأمل ماشا وهي نائمة في رفق على مقعدنا الرطب ، وهي تحتمى بمنديلها القطنى الابيض ، والكرز الاسود اللذيذ الموضوع في الطبق ، وثيابنا الخفيفة النظيفة للغاية . وكان شعاع الشمس ينعكس ويتموج في ماء الدورق .. وكنت أشعر وقتئذ بسعادة غريبة . ورحت أفكر : ماذا ينبغي ان أفعل ؟ .. ترى هل أنا مذنبه اذ أشعر بأننى سعيادة هكذا ؟ ولكن كيف ، ولن أكرس نفسى وسعادتى ؟



كنت الشمس قد توارت خلف قمم اشجار البلوط الشامخة في الحديقة ، وانخفض الفبار واستقر أكثره على الارض .. وأصبحنا في تلك اللحظة نلمح من بعيد مناظر الطبيعة ، وقد ازدادت وضوحا وأشراقا تحت أشعة الشمس المائلة .. وكانت السحب قد انقشعت تماما ، وكنت أرى فيما وراء الاشجار العالية أكواما اخرى من حزم القمح الى جوار مخزن الفلال ، ينزل الفلاحون من فوقها ..

ولآخر مرة في ذلك اليوم ، مرت العربات مسرعة ، وقد اخذت الاجراس المعلقة في رقاب خيولها تجلجل محدثة موسيقى صاخبة كان صداها يتردد في الهواء .. وكان غناء القرويات يتردد ممتزجا برنين هذه الاجراس ، وهن عائدات الى بيوتهن تحمل كل واحدة « شوكة » فوق كتفها ، وقد شدت حزاما الى وسطها ..

ولم يحضر سيرج على الرغم من اننى لمحتة مرة اخرى منذلحظات طويلة عند سفح الجبل .. وفجأة ، ظهر في آخر ممر الحديقة من الناحية التي لم اكن اتوقع حضوره منها قط ، لانه دار حول المرتفع الذي كنا نجلس فوقه ..

وتقدم نحوى سيرج وقد رفع قبعته ، فبدا لى وجهه المشرق الصبح . ولما وقعت عيناه على ماشا التي كانت لا تزال نائمة ، عض شفته وغمز بعينه .. ثم مشى على اطراف اصابعه ، فأدركت على الفور انه كان في احدى لحظات انشراحه ومرحه دون سبب ظاهر ، وهى لحظات كنت احبه فيها كثيرا وكنا نسميها فيما بيننا : الانطلاق الفطرى . وبدا لى سيرج في تلك اللحظة كأنه تلميذ هارب من فصله ، وكان السرور والمرح يشعان من قمة رأسه الى اخمص قدميه ..

واقترب منى ، ثم صافحنى قائلا بصوت منخفض :

– طاب يومك أيتها « البنفسجة الصغيرة » .. كيف الحال ؟
حسنا !

فلم أجب ، ولكنى وجهت اليه نفس هذا السؤال .. فأجاب قائلا :

– واننى في خير حال ، واشعر اليوم باننى في الثالثة عشرة من عمري .. أود ان لعب بجواد من الخشب ، وان اتسلق الاشجار ! فقلت له وانا انظر في عينيه الباسمتين ، واشعر بأن هذا « الانطلاق الفطرى » كان يفزونى انا ايضا :
– انه « الانطلاق الفطرى » ..

فتمتم قائلا وهو يغمز لى ثانية بعينه ، ويكتم ابتسامة على شفتيه :

– نعم .. ولكن لماذا تريدان اذن أن توظفنى ماشا كارلوفنا المسكينة ؟

والواقع أننى لم اكن قد لاحظت أننى كنت – وأنا انظر اليه – أضرب بالفصن الذى كان فى يدي منديل المربية ، وامس به وجهها ، دون أن اشعر ، فانفجرت ضاحكة ..

وقلت له فى همس ، وكاننى احرص على الا اوقظ ماشا :

– لا شك فى أنها ستقول انها لم تتم !

ولكننى لم اكن – فى الواقع – أهمس لهذا السبب ، وانما كنت اجد من المستحب أن اكلمه على هذه الصورة ..

وكان سيرج من جانبه يحرك شفتيه ويقلدنى ، وكأنما كان هو أيضا يقول لى بصوت منخفض شيئا يجب الا يسمعه احد .. ثم لمح طبق الكرز وتظاهر بأنه يستولى عليه خلسة ، ثم انطلق الى سونيا ليجلس مكان الدمية تحت شجرة « التليو » . واوشكت شفقتى أن تفضب لولا أنه صالحها بسرعة عن طريق تنظيم لعبة راحا يلعبانها معا ، وهى سباق فى التهام الكرز !

وقلت له وأنا ابتسم :

– أتريد أن أمر باحضار كمية أخرى من الكرز ؟ . ام نذهب نحن لنحضره

فتناول الطبق ووضع فيه الدمى ، وقال انه من الافضل ان نذهب نحن لاحضاره ..

وذهبنا ثلاثتنا الى أشجار الكرز ، بينما كانت سونيا تضحك وهى تعدو خلفه وتجذبه من ذيل معطفه كى يמיד إليها الدمى ، فعادها إليها ثم التفت الى ، وقال لى فى صوت خفيض بالرغم من أنه لم يكن هناك أحد نخشى أن نوقظه :

– لماذا لا توافقين على أنك « بنفسجة » ؟ .. حينما اقتربت منك بعد ما تحديث كل هذا الفبار والحر والتعب ، خيل الى اننى اشم رائحة البنفسج .. والحق انه لم يكن هذا البنفسج ذا الرائحة القوية ، بل البنفسج الذى ينمو – كما تعرفين – وتكون « اول قطفة » منه لا تزال متواضعة ، وتنبثق منها رائحة هى مزيج من الجليد الذى يتلاشى وعشب الربيع ...

فقلت له على الفور لأخفى ما أثارته كلماته فى نفسى من سرور واضطراب :

– ولكن قل لى .. هل المحصول على ما يرام ؟
– انه مدهش ! .. ان هؤلاء الفلاحين قوم ممتازون فى كل مكان ، وكلما ازددنا معرفة بهم تضاعف حبنا لهم ..
– آه ، نعم .. فقبل وصولك بلحظة قصيرة ، كنت أرقب العمل من المكان الذى كنت جالسة فيه ، فأدركت مدى ما يبذلونه من جهد فى الوقت الذى كنت انعم فيه بقدر كبير من الراحة و ..
فقاطعنى قائلاً ، وهو يلقي على نظرة مداعبة :
– لا تلعبى بهذه المشاعر يا كاتيا .. فعلمهم هذا شىء مقدس ، وليحفظك الله من الادعاء فى مثل هذه الامور !
– ومن أجل هذا فاننى لا أقول ذلك الا لك وحدك ..
– أعرف ذلك .. حسناً ! وأين الكرز ؟

كانت أشجار الكرز محاطة بسور له باب مفلق .. ولم يكن هناك بستانى واحد ، اذ ان سيرج كان قد ارسلهم جميعاً للعمل . وجرت سونيا لتحضر المفتاح ، ولكن سيرج لم ينتظر عودتها ، وتسلق السور من أحد اركانه بعد ان تعلق ببعض الشباك ، وقفز الى الناحية الاخرى .. وقال لى من هناك :

– هل لك ان تعطينى الطبق ؟
– كلا .. اريد ان اجمع الكرز بنفسى ، وسأذهب لاحضر المفتاح

لان سونيا لم تجده بلا شك ..

ولكننى ، فى نفس الوقت ، تملكتنى نزوة بأن أفاجئه لارى ماذا كان يفعل هناك ، وماذا كان ينظر اليه ، وماذا كانت هيسأته .. وباختصار : لأراه فى الوقت الذى يعتقد فيه أن أحدا لا يراه .. أو لعل ذلك يرجع - بكل بساطة - الى اننى كنت أريد الا أضيع فى تلك اللحظة دقيقة واحدة من متعة النظر اليه .. فمشيت فوق الشوك على اطراف أصابعى ودرت حول السور ، ثم ذهبت الى الناحية الاخرى حيث السور أقل ارتفاعا ، ووقفت فوق وعاء مقلوب بحيث أصبح صدرى فى مستوى السور ، وانحنيت الى الداخل ابحت بعينى لانظر ما يشمله هذا المكان ..

كانت اشجار الكرز القديمة منحنية للفاية ، وتتدلى منها عناقيد من الكرز المسود اللذيذ .. فأخفيت رأسى تحت الشباك ، ولمحت سرج بين اغصان كثيفة ملتوية فى كرزة عجوز .. ولا شك فى انه كان يعتقد اننى رحلت ، وأن أحدا كان لا يراه ..



كان سرج جالسا على حطام كرزة عجوز حاسر الراس ، وقد اغمض عينيه ، وراح يداعب باهمال بين أصابعه قطعة صغيرة من صمغ الكرز .. وفجأة ، فتح عينيه وتمتم يقول شيئا وهو يبتسم ، وكانت ابتسامته وكلماته التى تتمم بها لا تشبه الا قليلا مما كنت أعرفه عنه ، حتى اننى خجلت لتجسسى عليه . وقد بدا لى ان ما همس به كان هذه الكلمات : « كاتيا .. هذا غير ممكن ! » ثم كرر هامسا فى مزيد من الحنان : « عزيزتى كاتيا ! » .. ولكننى فى هذه المرة سمعت هاتين الكلمتين فى وضوح تام .. فخفق قلبى فى عنف ، وشعرت بموجة من المرح تغمر نفسى ، واخذت الى حد كبير .. حتى اننى اضطررت الى التشبث بالسور لامنع نفسى من السقوط ، وحتى لا ينفضح أمرى !

وسمع سرج حركتى ، فالتفت وراه فى شىء من الفزع .. ثم

غض بصره فجأة وقد احمرت وجنتاه كأنه طفل صغير ، وأراد ان يقول لى شيئاً فلم يستطع ، وازداد احمرار وجهه .. ومع ذلك، فقد ابتسم وهو ينظر الى .. فابتسمت له كذلك ، وقد لاحظت ان ملامحه كانت تنطق بالسعادة . كلا ، كلا .. ان سيرج لم يعد اذن ذلك العم العجوز الذى كان يفرقنى فى المداعبة والتوجيه ، وانما كنت ارى امام عيني رجلا فى نفس مستواى .. رجلا يحبنى ويخشانى ، وكنت انا نفسى اخشاه واحبه .. !

وانقضت لحظات ، لم يقل احدنا خلالها شيئاً للآخر ، ولم يقنع بأن يبادلہ النظرات .. وفجأة ، قطب سيرج حاجبيه .. وانطفأ لهيب نظرتہ فى نفس اللحظة التى ثلاثت فيها ابتسامته . وسرعان ما عاد الى موقفه الابوى البارد حياىلى ، كما لو كنا قد فعلنا شيئاً منكراً ، وكما لو كان قد تاب الى رشدہ ونصحنى بأن اأخذو حدوه !

وقال لى :

— انزلى من هنا حتى لا تصابى بأذى .. وصفقى شعرك ، ثم انظرى ماذا تشبهين !

فقلت فى نفسى وقد تملكنى الغضب : « ترى لماذا يخفى شعوره هكذا ؟ ولماذا يريد ان يؤلمنى ؟ »

وتملكتنى فى تلك اللحظة رغبة عارمة فى أن أضعف اضطرابه ، وأن أجرب قوة اغرائى عليه ، فتعلقت بيدي فى غصن شجرة مجاورة ثم قفزت الى الناحية الاخرى من السور وانا أقول له :

— كلا .. أريد ان اقطف الكرز بنفسى ..

وقبل أن يتمكن من معاونتى ، قفزت الى الارض بين اشجار الكرز .. فاحمر وجهه من جديد ، وصاح قائلاً وهو يحاول أن يخفى اضطرابه تحت ستار من الغضب :

— اية حماقة هذه التى ترتكبينها هنا ! ..

— كان من الممكن أن يصيبك اذى .. والآن ، ارينى كيف

تستطيعين الخروج من هذا المكان ؟

وبلغ اضطراب سيرج في تلك اللحظة أضعاف ما اعتراه من قبل ، ولكن اضطرابه هذا صار لا يفرحنى ، بل يثير خوفاً .. ذلك لانى كنت بدورى مضطربة تعلق وجنتى حمرة الخجل .. فابتعدت عنه وأنا لا اعرف ماذا اقول ، وأخذت أجمع الكرز ولا ادرى أين اضعه . ورحت الوم نفسى واعض بنان الندم ، وقد استبدبى الخوف .. وكان يبدو لى فى تلك اللحظة اننى بتصرفى هذا قد فقدت مكانتى فى قلبه الى الابد !

ولبئنا هكذا نحن الاثنين بلا حديث ، وكان الصمت ثقيلاً علينا .. واقبلت سونيا تجرى ويدها مفتاح الباب ، فأخرجنا ظهورها المفاجيء من هذا الموقف المربك . ومع ذلك ، فقد استمر بيننا الصمت .. وكل منا يفضل ان يتحدث الى شقيقتى ..

وهذات نفسا لما عدنا الى ماشا من جديد ، واقسمت لنا هذه انها لم تنم ، وانها سمعت كل شيء . وحاول سيرج مرة أخرى ان يعود الى موقفه كأب يحمينى ، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل ولم تستطع ان تخدعنى . وكان هناك حديث معين كان قد جرى بيننا منذ يومين ، وكان لا يزال حيا فى ذاكرتى ..

كانت ماشا قد تطوعت برأى من عندها ، فقالت فى جد واهتمام :
- ان الرجل يقع فى شباك الحب بسهولة اكثر من المرأة ، ومن اليسر عليه ان يعبر لها عن حبه ..

وصممت ماشا لحظة ثم لخصت رأيها قائلة : « يستطيع الرجل ان يقول انه يحب ، ولكن المرأة لا تستطيع ان تفعل ذلك »
فرد عليها سيرج قائلاً :

- يبدو لى ان الرجل لا يستطيع ، ولا ينبغي له ان يقول انه يحب ..

فسأله قائلة :

- لماذا ؟

— لان ذلك سيكون كذبا على الدوام .. وبعد ، فما معنى ان يكتشف الرجل انه يحب ؟ اهو حدوث شيء غير عادى لمجرد أن ينطق بهذه الكلمة ؟ شيء غير عادى أو ظاهرة أيا كانت تحدث هكذا فجأة ودفعة واحدة ؟ يبدو لى أن هؤلاء الناس الذين يقولون لك بطريقة رسمية : « أحبك » .. اما انهم يخدعون أنفسهم ، أو ما هو أسوأ من ذلك : يخدعون الآخرين !.

فقلت ماشا تسأله :

— وهكذا ، حسب رأيك ، تعرف المرأة أن الرجل يحبها حينما لا يقول لها انه يحبها !

— هذا شيء لا اعرفه ، ولكل رجل طريقته فى الكلام .. ولكن ثمة مشاعر تفرض فهمها بنفسها .. فحينما اقرأ رواية ما ، فاننى أحاول دائما أن أتصور منظر الملائم « كريلسكى » أو « الفريد » وهما يقولان : « أحبك يا النورا .. » ويظنان انه سيحدث فجأة شيء غريب ، فى حين لا يحدث شيء على الإطلاق لا فى نفسها ولا فى نفسه .. فوجهاهما ، ونظراتهما ، وكل شيء فيهما يظل دائما كما هو ! ..

وفهمت من خلال هذا المزاح ان وراءه معنى جديا ، وان هذا المعنى قد يتعلق بى .. وكانت ماشا لا تسمح — بسهولة — بأن يطول الحديث عن أبطال الروايات ، فصاحت فى سيرج قائلة :

— انك تلقى دائما بآراء تعارض بها آراء الآخرين ، هيا .. وكن صريحا : ألم تقل أنت نفسك أبدا لامرأة انك تحبها ؟

فأجابها سيرج قائلا وهو يضحك :

— اننى لم أقل ذلك أبدا ، ولم أئن ركبتى أمام أحد قط .. ولن أقوله لاحد ..

تذكرت حينئذ هذا الحديث الذى جرى بيننا منذ يومين ، فقلت فى نفسى : « نعم .. انه ليس بحاجة الى أن يقول لى انه يحبنى ،

فيو يحبنى ، وانا أعرف ذلك ، ولن تستطيع كل الجهود التى يبذلها
ليبدو أمامى بمظهر عدم الاكتراث ، أن تنتزع من نفسى اعتقادى
الراسخ بأنه يحبنى ..

ولم يتحدث الى سيرج طيلة هذه السهرة الا قليلا جدا ، ولكننى
كنت أشعر بحبه فى كل كلمة من كلماته ، وكل حركة من حركاته ،
وكل نظرة من نظراته ، وكنت لا اشك أبدا فى ذلك .. والشئ الوحيد
الذى كان يفيظنى منه ويبعث الحزن فى نفسى انه كان لا يزال يحرص
على أن يخفى حبه عنى ويدعى البرود ، بينما كان كل شئ قد
أصبح واضحا تماما بحيث كنا نستطيع فى كثير من السهولة
والبساطة أن تكون سعداء أكثر مما يتسنى لغيرنا من الناس .
ولكننى من ناحية أخرى كنت أتعذب ، وكأننى ارتكبت جرما ، لانى
قفزت فوق سور البستان ولحقت به بين أشجار الكرز .. وكان
يبدو لى وقتئذ انه كف عن تقديره لى ، وأصبح يشعر نحوى بشئ
من الجفاء

وجلست الى البيانو بعد تناول الشاى ، فلحق بى سيرج فى
الصالون وقال :

— أعزفى لنا شيئا يا كاتيا ..

فحدقت فى عينيه فجأة ، وقلت له :

— هل انت غاضب منى يا سيرج ؟

— لماذا ؟ ..

فأجبتة وقد اندفع الدم غزيرا الى وجنتى من شدة الخجل :

— لاننى لم أطعمك بعد ظهر اليوم ..

ففهم ما كان يجول بخاطرى ، وهز رأسه وأبتسم .. وادركت
من ابتسامته انه كان يريد أن ينهرنى قليلا ، ولكنه لم يعد يستطيع
أن يفعل ذلك ..

وقلت له وانا اتخذ مكانى امام البيانو :

— لقد انتهينا من هذا الموضوع . وأصبحنا مرة أخرى على
وفاق .. اليس كذلك ؟

- اعتقد ذلك ..

ولم يكن في هذا الصالون الكبير ذى السقف المرتفع سوى شحمتين فوق البيانو .. اما بقية الغرفة فكانت غارقة في شبه ظلام .. ومن خلال النوافذ المفتوحة ، كنا نتأمل مناظر ليالي الصيف القمرية ، وكاد يسود المكان سكون شامل لم يكن يعكس صفوه بين حين وآخر الا وقع اقدام ماشا في الصالون ، وصوت سنابك جواد سيرج المشدود الى النافذة ، وهو يضرب الارض ويحطم بعض الاعشاب ..

وجلس سيرج خلفي بحيث لم اكن استطيع أن اراه ، ولكن نظراته وحركاته التي لم يكن في استطاعتي أن أميزها ، كانت تنفذ الى أعماق نفسي فتحدث دويا في قلبي ..

وجرت اناملى على البيانو تعزف المقطوعة التي كان قد احضرها لى ، فحفظتها امامه ومن أجله .. وكنت لا افكر ابدا فيما كنت اعزفه ، ولكن كان يبدو لى اننى أجيد عزفه ، وأن هذا العزف يعجبه .. وكنت أقاسمه المتعة التي كان يشعر بها ، وأدرك دون أن اراه أن نظراته من مكانه كانت مثبتة على ..

وبينما كانت اناملى تمس مفاتيح البيانو - دون أن اعى ماكنت افعله - بدرت منى حركة لا ارادية .. فقد نظرت اليه ، وكان رأسه ظاهرا بوضوح في ظلام الليل ..

كان سيرج جالسا يتأملنى بامعان ، وقد أسند جبينه الى راحة يده ولمعت عيناه ببريق شديد ، فابتسمت وانا افاجئه بالتطلع اليه .. وتوقفت عن العزف .. فابتسم هو الاخر ، ومال برأسه على « النوتة » بصورة فهمت منها انه يلومنى ويطلب منى أن أتابع العزف ..

وحينما انتهيت من العزف ، كان القمر في كبد السماء ، واخذ ضوءه الفضى يتسلل من خلال النوافذ ، ويمتزج بضوء الشحمتين الخافت لينعكس على « الارضية » الخشبية المصقولة ..

وقالت ماشا :

- انك تصرفت تصرفا سيئا وتوقفت عن العزف فى أجمـلـ موضع ، وأرى أنك لم تحسنى العزف !
فاحتج سيرج قائلا :

- بل على العكس .. انها لم تنجح يوما فى العزف كما نجحت
اليوم ..

ونهب من مقعده ، واخذ يذرع ارض الصالون المعتم والردهة
جئة وذهابا ، وهو ينظر الى مبتسما .. فكنـت ابادله الابتسام ..
وكنـت أرغب فى الضحك - دون أى سبب - لفرط سعادتى بما
حدث فى ذلك اليوم وفى تلك اللحظة التى كنا فيها ..

وبينما كان الباب يحجب عنى سيرج لحظة ، قفزت الى رقبة
ماشـا واخذت اقبلها فى موضعى المفضل على رقبتها السمينـة وأسفل
ذقنها .. وحين ظهر ثانية ، أعدت لوجهى مظهره الجاد ، وكنـمت
ضحكة كادت أن تغلت من بين شفـتى !
وسألته ماشا قائلة :

- ماذا جرى لها اليوم ؟

ولم يجب سيرج ، بل اكتفى بأن تندر على .. وكان يعرف جيدا
ماذا كان يحدث لى !

ووقف سيرج أمام باب الشرفة التى تطل على الحديقة ثم قال:
- هيا .. احضرا الى هنا لتشاهدا جمال هذه الليلة !
فلحقنا به هناك .. وكانت حقا ليلة لم أر مثلها بعد ذلك .

كان القمر بدرًا يسطع خلفنا من فوق البيت .. وكان سقف
البيت وأعمدة الشرفة تعكس ظللا قصيرة تنحدر بميل الى ممر
الحديقة المفروش بالرمل ، وعلى حوض العشب ذى الشكل
البيضاوى .. وكانت كل نباتات الحديقة تتلألأ فى الضوء ، وقد
غطتها طبقة فضية من الندى بفعل ضوء القمر .. وكان هناك

طريق عريض تحف به الازهار من الجانبين ، وتقطعه ظلال اشجار
الورد التي تسندها العصى ..

وكان هذا الطريق المضيء النضر يمتد تحت الضباب ، وكان
يتلالا فيه حصى مدبب .. وكان سقف حوض البرتقال المفلق
يسطع من وراء أعالي الاشجار ، وكان الضباب يتصاعد من خلف
رطوبة الحديقة وهو يزداد كثافة لحظة بعد أخرى .. واصبحت
الازهار رطبة بتأثير الندى ، بحيث أصبح من المستطاع أن يميزها
المرء الواحدة عن الاخرى . وكان الضوء يمتزج بالظل في ممرات
الحديقة بحيث أن الاشجار والممرات كانت تبدو كأنها مبان شفافة
تهتز وتتموج من جراء ذبذبة حنون !

وفي ظل البيت ناحية اليمين ، كان كل شيء معتما لا يمكن تمييزه،
ويكاد يثير الرعب في النفوس .. ولكن قمم اشجار البلوط ذات
الشكل العجيب كانت تلمع فيما وراء ذلك ، مثيرة في النفس
شعورا غريبا وهي تنثر الى جوار البيت وفوقه هالة من الضوء
الواضح ، بدلا من أن تتلاشى في اجواز هذا الفضاء ذى الزرقة
المعتمة ..

وقلت فجأة :

— هيا بنا ننزه ..

فوافقت ماشا .. ولكنها اضافت قائلة ان على ان انتعل حذاء
خشيبا حتى لا انزلق على الارض الرطبة

فقلت لها :

— ليس هذا ضروريا .. فسيعطيني سيرج ذراعه ..

قلت لها ذلك ، وكانما سيمعنى ذراع سيرج من أن تبتسل
قدماي ! ولكن مثل هذا العمل الجنوني كان يعتبر في تلك اللحظة
امرا مقبولا لا يثير الدهشة في نفس كل منا نحن الثلاثة

ولم يكن سيرج قد اعطاني ذراعه من قبل — وأنا اسير معه —
وهانذا الان قد اخذته بنفسى ، فلم يسد عليه اى اثر للدهشة .

وتولنا نحن الثلاثة سلم الشرفة المؤدى الى الحديقة .. وكان كل هذا العالم ، وهذه السماء ، وهذه الحديقة ، وهذا الهواء الذى كنا نستنشقه .. كل هذا لم يعد يبدو فى نظرى كما عرفته من قبل ! ..

وحينما نظرت امامى فى ممر الحديقة الذى كنا نهم بالسير فيه ، دار بخاطرى اننا لن نستطيع ان نذهب ابعد من ذلك ، وان العالم ينتهى هنا ، وان كل شىء من حولى يجب ان يظل ثابتا على جموده دون تغيير فى جماله الحالى

ومع ذلك ، فكلما تقدمنا فى السير ، كان هذا الجدار المسحور المصنوع من الجمال الخالص يتراجع امامنا ليفسح لنا الطريق .. وكنت حينئذ اجد نفسى مرة ثانية وسط اشياء مألوفة : الحديقة ، والممرات ، والاشجار ، واوراقها الجافة .. وكنا نعبس - اثناء سيرنا فى هذه الممرات - دوائر مضيئة تتلوها اخرى مظلمة . وكانت اوراق الاشجار الجافة تهشم تحت اقدامنا ، واغصان الاشجار الحنون ترتطم بوجهى ..



وكان سيرج يمشى الى جوارى بخطوات بطيئة منتظمة - فى تحفظ وحذر - تاركا ذراعى يستند الى ذراعه .. وكان القمر يطل علينا من السماء ، ويضئ وجوهنا من خلال اغصان الشجر .. وتأملت سيرج لحظة ، ولم يكن هناك ولا شجرة واحدة فى ذلك الجزء من الممر الذى كنا نجتازه فى تلك اللحظة ، فبدأ لى وجهه واضحا فى ضوء القمر .. كان جميلا جدا ، وتنطق ملامحه بفيض من السعادة ..

وكان يقول لى : « هل انت خائفة ؟ »

فكان صدى هذه الكلمات يتسردد فى نفسى ، وكأنه يقول لى :
« احبك يا صغيرتى العزيزة ! احبك ! احبك ! » ..
وكانت نظراته تؤكد حبه لى .. وكذلك ذراعه ، وضوء القمر ،

والظل ، والهواء ، وكل شيء من حولنا ..
وظفنا هكذا بكل أرجاء الحديقة ، وماشا تسير الى جوارنا
بخطوات صغيرة متوثبة ، وقد بدا انها تتنفس بجهد لما تلاقيه من
عناء وتعب ، وقالت لنا آخر الامر :
- يجب الان ان نعود !

وكنت اتالم كثيرا من أجلها .. اتالم كثيرا من أجل هذه المخلوقة
المسكينة .. وقلت في نفسي : « لماذا لا يكون شعور ماشا كشعورنا؟
ولماذا لا يكون المرء شابا وسعيدا على الدوام ؟ .. لشد ما ينبثق
الشباب من خلال ليلتنا هذه !

وعدنا الى البيت ، ولكن سيرج اطال البقاء معي بعد ذلك ،
ونسيت ماشا ان تذكرنا بأن الوقت كان متأخرا . ودار الحديث
بيننا عن أمور تافهة ، ونحن نجلس جنبا الى جنب ، فلم نشعر
بانفسنا حتى كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا !

ورحل سيرج مع مطلع الفجر ، بعد ان استأذن منا كما كان يفعل
من قبل ، ولكنني كنت اعرف منذ ذلك اليوم انه صار ملكا لى دون
شك ، واننى لن أستطيع ان ابتعد عنه ..



وحيثما ايقنت اننى كنت احبه ، قصصت كل شيء على ماشا ..
فسرها ذلك وتأثرت به ، ولكن هذه المرأة المسكينة لم تستطع ان
تنام طيلة هذه الليلة .. أما انا ، فقد لبثت فترة طويلة اتمشى بعد
ذلك فى الشرفة ، اطوف بأرجاء الحديقة ، وانا احاول ان اتذكر كل
كلمة وكل شيء حدث بيننا .. ومرة أخرى ، أخذت أجوب ممرات
الحديقة التى شاهدت نزهتنا الليلة معا

ولم يزر النوم جفنى فى تلك الليلة .. ولاول مرة فى حياتى
شاهدت شروق الشمس وعرفت ما هو الفجر ، ورحت أسائل
نفسى : لماذا لا يقول لى ببساطة انه يحبنى ، ولماذا يخلتق الصعوبات،
ولماذا يزعم انه عجوز بينما كل شيء بسيط جدا وجميل للغاية ؟

لماذا نضيع هكذا وقتنا ثمينا قد لا يعود ابدا ؟ فليقل اذن انه يحبني .. ليقل ذلك في الفاظ صريحة ، وليأخذ يدي في يده ، كورميسل براسه على ، ويقول : أحبك ! .. ليخفض عينيه اذن ، ويحمر وجهه أمامي من الخجل ، وسأقول له حينئذ كل شيء .. أو ربما من الافضل الا اقول له شيئا ، بل احتضنه بين ذراعي وأجهش بالبكاء .. ولكن ، ترى ماذا يحدث لو انني كنت مخطئة وكان لا يحبني ؟

جالت هذه الفكرة فجأة بخاطري ، فتملكني الذعر لهذا الشعور .. ويعلم الله الى أين كان يمكن أن يؤدي بي هذا الشعور ... والواقع أن صدى خجلنا واضطرابنا حين قفزت ولحقت به بين اشجار الكرز ، كان ثقيلًا على نفسي ويقبض قلبي !

وامتلأت عيناي بالدموع وأخذت اصلى .. وقد راودتني في تلك اللحظة فكرة غريبة للغاية ، احيت الامل في نفسي ، وأشاعت في قلبي الهدوء .. فقد قررت أن ابدا فترة من التقشف والزهد ، وأن أختار يوم عيد ميلادي لاصبح خطيبة لسيرج

ولم أكن أدري كيف ولماذا كان يمكن أن يتحقق ذلك .. ولكنني اعتقدت في نفسي تلك اللحظة أن الامور ستسير على هذا النحو .. ولما عدت الى غرفتي كان النهار قد اشرق تماما ، واستيقظ كل من في البيت ..



الفصل الرابع

قبيل الزواج

أحلام ...

كنا في وقت صيام المسيحيين الارثوذكس .. ولهذا لم يفاجأ أحد بالبيت بمشروع الزهد والتقشف الذي قررت تنفيذه ..

ولم يأت سيرج ليرانا طيلة اسبوع بأكمله .. ولم يدهشنى ذلك منه ، ولم يفضبنى أو يقلقنى ، لفرط سرورى من أنه لم يحضر .. إذ كنت لا انتظره الا في يوم عيد ميلادى ..

وفي كل يوم من أيام هذا الاسبوع ، كنت استيقظ مبكرة في اللحظة التى يتأهب فيها الفلاحون لاستئناف أعمال اليوم .. ثم أتزهد وحدى في أرجاء الحديقة وأنا افكر في الماضى ، وفيما كان يجب على أن افعل حتى أجد نفسى راضية مسرورة في المساء بعد قضاء يوم لم ارتكب فيه الخطايا ..

وخلال النهار ، كانت الخيول تشد الى العربة لانطلق بها مع ماشا وخادمة أخرى الى الكنيسة التى تقع على مسيرة ثلاثة فراسخ من بيتنا . وفي كل مرة كنت ادخل فيها الكنيسة ، كنت اتذكر أن المرء وهو بداخلها يدعو الله من أجل كل هؤلاء الذين يدخلونها وقلوبهم عامرة بخشية الله .. وكنت شديدة الحرص على أن ارتفع الى مستوى هذه الفكرة ، خاصة في اللحظة التى كنت ارتقى فيها سلم الكنيسة الذى يكسوه العشب ، وهى اللحظة التى لم يكن يوجد بالكنيسة خلالها الا نحو عشرة من الفلاحين والزهاد الذين جاءوا - مثلى - يتأهبون للعبادة في فترة الصوم والتقشف هذه .. كما كنت اعنى كل العناية بأن أرد على تحيتهم في تواضع وشغف .. وكنت اقترب بنفسى من الدرج الذى تودع فيه الشموع - وكان ذلك يعتبر في نظرى عملا مجيدا - فيناولنى جندى عجوز كان يعمل

خادما لكنيسة بعض الشموع ، فاذهب بعد ذلك وأضعها في خشوع
أمام الصور المقدسة ..



وحينما كنت أقرب من باب المكان المقدس ، كنت أستطيع أن
المح « المفروش » - الذى كانت والدتى قد صنعته بيديها - موضوعا
فوق المذبح وعليه صور دينية ، وأخرى للملائكة تحف بها النجوم ،
وحمامة حولها هالة من الذهب ..

وكان هذا « المفروش » يبدو لى كبيرا جدا أيام طفولتى ، كما كانت
هذه الحمامة تستلفت نظرى بوجه خاص .. وكنت المح فيما وراء
المكان الذى ترتل فيه التراتيل ذلك الحوض الذى طالما أمسكت فيه
بأطفال الفلاحين فى مزرعتنا ليعمدهم القسيس ، والذى كنت أنا
نفسى قد عمدت فيه . وكان القسيس العجوز يبدو مهيبا مؤثرا ،
وقد ارتدى عباة المصنوعة من قماش كان يومها يغطى نعش والذى
.. ثم يأخذ فى ترتيل الطقوس بنفس الصوت الذى كان يرتل به
الطقوس فى بيتنا وأنا طفلة صغيرة ، وأثناء تعميد شقيقتى سونيا،
وخلال إقامة الشعائر الجنائزية على جثمان والدى ثم والدتى ..

وكنت أسمع صوتا متكسرا ومألوفا لى يتصاعد من بين المرتلين ،
وكان ذلك صوت القسيس الذى يشرف على انشاد الترتيل ..
وكنت أرى فى كل مرة عجوزا محدودة الظهر كانت تحرص على
حضور كل الطقوس ، وقد استندت الى الجدار وأمسكت بين يديها
الضمومتين بمنديل باهت اللون .. وراحت تتأمل إحدى الصور
الدينية بعينين تفيضان بالدموع ، وتتمتم بصلوات غامضة كانت
تساب متتابعة من فمها الخالى من الاسنان ..

ولم يكن الفضول وحده - أو مجرد الذكريات - هى التى تقرب
الى نفسى كل هذه الأشياء وهذه المخلوقات ، بل كانت هذه جميعا
تبدو فى نظرى كبيرة مقدسة حافلة بالمعانى العميقة ..

وكنت أعير أذنا واعية لكل كلمة من العظات والصلوات التى

استمع اليها ، محاولة جهد طاقتى أن اجعل شعورى يتفق ومغزى هذه الكلمات .. وأطلب الى الله أن ينير بصيرتى حينما كنت لا أفهم بعض معانيها ، أو ابدل مالم أكن أسمعها منها جيدا بصلوات من عندى ..

وفى اللحظة التى كانت تتلى فيها صلوات الغفران ، كانت ذكريات ماضى تطفو فى نفسى .. وكان ماضى طفولتى البريئة يبدو فى نظرى حالك السواد بالقياس الى حالة الصفاء التى كانت تنعم بها نفسى فى تلك اللحظة .. فكنت أبكى على نفسى ، ولكننى كنت أشعر فى نفس الوقت بأن ذنوبى جميعا قد غفرت لى .. وحتى لو أنه كان لا يزال هناك من الذنوب ما اندم عليه ، فان ندمى عليها كان خليقا بأن يكون أكثر لطفا وأخف ابلاما ..

وعند انتهاء هذه الطقوس .. وفى اللحظة التى كان ينطق فيها القسيس بهذه الكلمات : « لتشملكم جميعا بركة الرب » ، كنت أشعر براحة نفسية ، بل وجسمية ، تسرى فى كيانى .. كما لو كان هناك تيار من النور والدفء قد غمر قلبى فجأة .. وكان القسيس يقترب منى فى بعض الاحيان - قبل رحيلى - ويسألنى قائلا :

- متى احضر الى منزلكن لاقامة بعض الطقوس ؟

فكنت اقول له فى انفعال :

- أشكرك يا سيدى القسيس على ما تريد أن تفعله من أجلى ، وسأحضر الى هنا بنفسى فى العربة أو سيرا على الاقدام ..
- آه ! .. انك تريدان بهذا أن تتكبدى مزيدا من المشقة والجهد ..

فكنت لا اعرف بماذا اجيبه مخافة أن اقع فى خطيئة الغرور .. وفى الايام التى كانت ماشا فيها لا ترافقنى ، كنت أصرف العربة من امام الكنيسة ، وأعود وحدى الى البيت سيرا على الاقدام ، وأحس فى تواضع عميق كل من كان يقابلنى فى طريقي ، وانا اتحين

الفرص لآمد الى الآخرين يد المساعدة وأسدى اليهم النصح ،
واضحى من اجلهم .. فاشارك في رفع عربة غاصت عجلاتها في
الوحد ، او اهدىء طفلا يصرخ عجزت امه عن تهدئته .. وكنت
أخوض في بعض الاحيان في الوحد لافسح الطريق للآخرين ..

وذات مساء ، سمعت وكيل أعمالنا يقول لماشا :

— ان هناك فلاحا يدعى سيمون جاء يطلب منى بعض الخشب
ليصنع مته نعشا لابنته ، وروبلا واحدا يقيم لها به طقوس الجنازة
فأجبتة الى ما طلب ..
فسالته قائلة :

— وهل هو في فقر شديد ؟

— انه فقير للغاية يا آنسة ، ويعيش على الكفاف ..
فانقبض قلبى على الفور ، ولكننى كنت مسرورة في نفس الوقت
لأننى علمت ذلك .. فأفهمت ماشا اننى ذاهبة للنزهة ، وصعدت
الى غرفتى فأخذت كل ما كان فيها من مال — ولم يكن كثيرا ولكنه
كان كل ما املك — ثم رسمت علامة الصليب ، ورحلت وحدى الى
القرية ميممة شطر كوخ سيمون .. وكان في طرف القرية ..

لم يكن قد رآنى احد حينما اقتربت من نافذة الكوخ .. فوضعت
عليها ما معى من مال ، ثم طرقت مصراعها في رفق .. فسمعت في
تلك اللحظة صريرا صادرا من باب الكوخ ، وبرز منه شخص نادانى ،
ولكننى كنت ارتعد من الخوف وكاننى قد ارتكبت جرما فهربت
عائدة الى البيت !

وسالنتى ماشا أين كنت وماذا كنت افعل ؟ .. ولكننى لم أفهم
حتى ما كانت تقول ، ولم انطق بكلمة واحدة .. وفى تلك اللحظة ،
كان كل شىء يبدو فى نظرى تافها ولا طائل تحته ..
واغلقت على نفسى باب غرفتى ، واخذت أذرع ارضها طولا وعرضا ،

وانا اشعر بأننى لا أريد أن افعل شيئا أو افكر فى شيء . وكنت لا استطيع أن اتبين بوضوح ما يعتمل فى أعماق نفسى ، وأنا اتصور مدى سرور هذه الاسرة المدممة ، والكلمات التى نطق بها أفرادها حيال ذلك الذى وضع النقود على قاعدة النافذة . . وأصبح يحز فى نفسى الآن اننى لم اعطهم هذا المال بنفسى . . وكنت اتساءل عما عسى أن يقوله سيرج لو انه علم بما فعلت ، ولكن كان يملؤنى سرورا انه لن يعرفه أبدا !

لقد كانت تفررنى فرحة عظيمة ، ويملؤنى اعتقاد بأننى - أنا والناس جميعا - بشر غير كاملين . . وكنت انظر الى نفسى والى الاخرين فى كثير من العطف الى حد ان فكرة الموت ذاتها بدت لى كرؤيا من السعادة

اننى كنت ابتسم ، وأصلى ، وأبكى . . وأحببت فجأة البشر جميعا فى تلك اللحظة ، كما احببت نفسى بعنف غريب . . ومددت يدي الى الانجيل وقرأت منه فقرات . . فاذا بكل ما كنت اقراه منه يصبح أكثر وضوحا وأيسر فهما . . واذا بقصة تلك الحياة الالهية تصبح أكثر بساطة بالنسبة الى واشد تأثيرا فى نفسى . . واذا بالمشاعر والافكار التى كنت اكتشفها اثناء هذه القراءة تزداد رهبة وعمقا فى نظرى . . ولكن ، كم بدا لى كل شيء واضحا وسهلا - كذلك - حينما اغلقت الكتاب المقدس ، ونظرت من جديد الى الحياة التى كنت ملقاة فيها والتى كنت اتأملها . .

وبدا لى من المحال الا اعيش عيشة طيبة ، وأن من اليسير أن احب الناس جميعا ، وأن يحبني كل فرد منهم ، خاصة وانهم كانوا جميعا على قدر من الرقة بازائي . . حتى سونيا التى كنت اتابع دروسى معها ، أصبحت مختلفة تماما ، وحريصة على أن تفهم كل شيء ، وشغوفة بارضائى ، وبألا تفعل ما من شأنه أن يفضبنى . وكان الاخرون يعاملوننى نفس المعاملة التى كنت اعاملهم بها . .



وانتقلت بعدئذ الى أعدائى لالتمس منهم الصفح قبل اليوم

العظيم يوم عيد ميلادى ، فتذكرت فقط آنسة من جيراننا كنت قد
سخرت منها منذ عام امام بعض الضيوف فكفت عن زيارتى ..
فكتبت اليها خطابا اعترف فيه بخطئى وارجوها ان تصفح عنى .
وردت على جارتى تقول لى انها قد صفحت عنى ، وانها بدورها
تطلب منى الصفح .. فظفرت من عيني دموع الفرح وانا اقرا تلك
المسطور البسيطة المملوءة بالمشاعر العميقة المؤثرة ..

وبكت خادمتى ايضا حينما طلبت منها الصفح .. فتساءلت
حينئذ عن السر فى انهم جميعا كانوا على طيبة كبيرة معى ، وفى اننى
كنت استحق منهم كل هذا العطف ؟ ..

وحينئذ ، تذكرت سيرج لا اراديا ففكرت فيه ، وكنت لا أستطيع
ان افعل غير ذلك .. ولم اعتبر ان هذا الشرود من جانبى يعد
خطيئة .. والواقع اننى لم افكر فيه على الاطلاق بنفس الطريقة
التي فكرت فيه بها فى تلك الليلة التي اكتشفت فيها لأول مرة انى
احبه .. وانما كنت افكر فيه تماما كما كنت افكر فى نفسى ، واشركه
على الرغم منى فى كل ما يتعلق بمستقبلى ، وكان تأثيره المسيطر
على نفسى ينمحي من مخيلتى تدريجا .. اذ اصبحت اشعر اليوم
باننى مساوية له ، وكنت افهمه حق الفهم وانا فى قمة البناء المثالى
الذى كنت اخلق فوقه ، وصار مفهوما - بالنسبة الى - كل ما كان
يبدو لى غريبا فيه .. وادركت اليوم فقط معنى تلك الفكرة التي
كان قد عبر لى عنها ، وهى ان السعادة فى ان يعيش المرء من اجل
الآخرين ، واصبحت اقره تماما على هذا الرأى

وكان يبدو لى اننا سننعم معا بسعادة لا حد لها .. وكنت
لا افكر فى سفر الى الخارج ، او بهرجة ، او مجتمع راق ، بل حياة
هادئة : حياة اسرة فى الريف ، وانكار دائم لارادتى الذاتية ، وحب
متبادل مستمر ، واعتراف دائم بجميل العناية الالهية ، وشكر
مطلق لله على معونته الحلوة

وفى اليوم الموعد ، يوم عيد ميلادى ، قمت بالطقوس التي كنت

انوى ان اقوم بها فيه وقد طفح قلبى بالسعادة ، حتى اتنى عدت
من الكنيسة يومئذ وفى نفسى الكثير من الهواجس .. فكنت اشعر
بالخوف من الحياة ، ومن كل احساس ، ومن كل ما يمكن ان يعكر
صفو هذه السعادة ..

وما كدنا ننزل من العربية امام درج الشرفة حتى سمعت جلية
عربة سيرج المعروفة ، وهو يمر من فوق « الكوبرى » وسرعان ما
لمحت سيرج نفسه ..

وتلقيت تهنته ، ثم دلفنا معا الى الصالون .. ولم اشعر قط
منذ ان عرفته بمثل الهدوء الذى كنت اشعر الان به وانا الى
جواره ، كما لم اشعر ابدا باستقلال كهذا الذى شعرت به فى الصباح
.. وكنت اشعر حينئذ باننى احمل فى نفسى عالما جديدا بأسره ،
ولم اكن اشعر وانا الى جواره بأذى اضطراب . ومع ذلك ، فربما
فهم ما كان يعتمل فى نفسى لانه أبدى نحوى عطفًا واحترامًا لا حد
لهما .. وكنت قد اقتربت من البيانو ، ولكنه اغلقه ووضع مفتاحه
فى جيبه ثم قال :

— لا تفسدى هذه الحالة النفسية التى اراك فيها الان ، فهناك
موسيقى تتردد فى نفسك لا يدانيها اعذب الانغام فى هذا العالم !
وشعرت نحوه بالاعتراف بالجميل لكلامه هذا .. ولم يضايقنى
كثيرا — فى نفس الوقت — انه فهم بسهولة ، وفى أتم وضوح ،
كل ما كان ينبغى ان يظل سرا فى نفسى بالنسبة لكل الاخرين ..
وما أن نطق سيرج بهذه الكلمات ، حتى نظر الى ماشا .. ثم
التقى على نظرة سريعة كما لو كان يخشى ان يلاحظ على وجهى شيئا
من الانفعال ، ولكن لم يبد على اثر للدهشة او الاضطراب ، ولم
اسأله حتى عما اذا كان غيابه سيكون لوقت طويل ..



لقد كنت اعرف انه سيقول لى هذا الكلام ، وكنت اعرف ايضا
انه لن يسافر .. ولا استطيع الان ان افسر كيف عرفت ذلك ،

ولكنه كان يبدو لى فى هذا اليوم المشهود اننى كنت اعرف كل ما كان وكل ما سيكون .. وكنت غارقة فى حلم من تلك الاحلام انسعيدة التى يتاح فيها للمرء نوع من الرؤيا المشرقة ، تكشف له عن المستقبل وتكشف له عن الماضى

وأراد سيرج أن يرحل بعد الغداء مباشرة ، ولكن ماشا كانت قد ذهبت لتغفو قليلا .. فاضطر الى الانتظار حتى تستيقظ ليودعها ..

وكانت الشمس تغمر أرض الصالون فذهبنا الى الشرفة ، وما كدنا نجلس حتى بدأت - فى هدوء تام - ذلك الحديث الذى كان يتوقف عليه مصير حبنى .. بداته فى نفس اللحظة التى جُست فيها امامه وجهها لوجه ، ولم ترد فيه كلمة واحدة اكثر مما كان ينبغي أن يقال ، ولم يتسرب اليه شيء كان يمكن أن يعوق ما كنت أريد أن أقوله .. ولست أستطيع أنا نفسى أن ادرك من أين جاءنى هذا الهدوء ، وهذا الاصرار ، وهذه الدقة فى التعبير .. بل كان يبدو لى أنه لم اكن أنا التى تتكلم ، وانما كان هناك شيء آخر مستقل تماما عن ارادتى هو الذى كان يدفعنى الى الكلام ..

كان سيرج لا يزال جالسا امامى ، فانتزع غصنا من احدى شجيرات الورد .. انتزعه فجأة بما فيه من أوراق . وحينما همعت بأن اتكلم ، ترك هذا الغصن جانبا وغطى وجهه بيده .. وهى حركة اما أن تدل على انه رجل هادىء كل الهدوء ، أو تدل على انه كان - على النقيض - يعانى اضطرابا بالغا ..

وبدأت حديثى بلهجة تنبض نبراتها بالتصميم ، فقلت له :
- لماذا ترحل ؟

وتوقفت لحظة ، وانا انظر مباشرة فى عينيه ..

فلم يجب على سؤالى فى الحال ، وتمتم قائلا - بعد لحظة -
وقد غض من بصره :

- ان لدى أعمالا ..

وفهمت انه كان من العسير عليه أن يكذب فى الرد على سؤال وجهته اليه بمثل هذه الصراحة ، وقلت له :

— أتصت الى .. انك تعرف ما لهذا اليوم من قيمة لدى ، وهو من مختلف الوجوه يوم عظيم .. واذا ما سألتك ، فليس ذلك لمجرد اننى ابين لك مدى اهتمامى ، فانت تعلم اننى ألك وأحبك ، وانما اسألك لانه يجب على ان اعرف لماذا ترحل .. فاجابنى قائلا فى هدوء :

— انه يصعب على كثيرا ان اقول لك الحقيقة ، وأن اقول لك لماذا ارحل .. وقد فكرت فيك مليا — وفى نفسى — خلال هذا الاسبوع ، فقررت انه يجب على ان ارحل . انك تفهمين لماذا فاذا كنت تحبيننى فلا تسألينى ..

ومسح سرج جبينه بيده ، ثم غطى عينيه بنفس هذه اليد ، وأضاف قائلا : « ان هذا صعب على .. ولكنك تفهمين يا كاتيا »
فأخذ قلبى يدق فى صدرى بعنف .. وقلت له :

— اننى لا استطيع ان افهم .. لا استطيع ! ولكن .. أنت ، تكلم .. بحق السماء ، وبحق هذا اليوم الذى نحن فيه .. تكلم ، ففى استطاعتى ان افهم كل شىء فى هدوء ..

فغير موضعه .. وتطلع الى ، ثم أمسك بغصن شجرة الورد فرفعه قليلا ، ثم قال — بعد لحظة صمت — بصوت كان يحاول عبثا ان يجعله ثابتا هادىء النبرات :

— سأحاول مع ذلك ان أدلى اليك ببعض المبررات على الرغم من ان ذلك يبدو لى سخيفا ، ويكاد يكون مستحيلا أن أعبر عنه بالالفاظ ، فضلا عن انه صعب بالنسبة الى !

وما كاد ينتهى من هذه الكلمات ، حتى قطب ما بين حاجبيه كأنما يشعر بالم جسمانى .. وقلت له :

— حسنا ؟ ..

فقال :

— تصورى أن هناك رجلا عجوزا اتعبته الحياه ، ولنفترض أن اسمه « أ » .. وأن هناك سيدة — ولنقل ان اسمها « ب » — شابة ، سعيدة ، لا تعرف بعد شيئا عن الحياه .. وأن هذا الرجل كان يحبها كابنة بسبب علاقات عائلية معينة .. وكان يخشى أن يتطور حبه هذا الى حب من نوع اخر ..



وصمت سيرج فلم اقاطعه .. وفجأة ، استأنف حديثه بصوت حاسم النبرات — ودون أن ينظر الى — قائلا : « اذ يعتقد أن « ب » شابة صغيرة السن ، وانها لا تزال تنظر الى الحياه فى غير جد ، وأنه قد يحدث بسهولة كبيرة أن يحبها ، وأن « ب » قد تسلى بهذا الحب . ولاحظ ذات يوم أن شعورا شديد الوطأة — كأنه الندم — قد تسرب الى نفسه فتملكه الذعر .. وخشى أن تفسد علاقات الصداقة الطيبة ، فقرر أن يتعد قبل أن تتفسر طبيعة هذه العلاقات ..

وما كاد سيرج يتم عبارته حتى وضع يده على عينيه فى اهمال ظاهر ..

فقلت على الفور وأنا اكبت انفعالى :

— ولماذا كان يخشى ان يتطور حبه الى حب اخر ؟ ترى هل بدت له غير جادة فى حبه .. !؟

فاجابنى سيرج قائلا ، وقد بدا عليه انه جرح :

— انك صغيرة السن ، ولكنى لم أعد كذلك .. وقد يحلو لك ان تمزحى بالحب ، ولكن يلزمنى انا شيء اخر ..

وصمت قليلا ثم اضاف يقول : « هذا هو ما قاله « أ » ، ولكن هذا كله سخف ، وانت تفهمين الان لماذا ارحل .. كفى كلاما فى هذا الموضوع .. ارجوك ! »

فقلت والدموع تهز صوتى :

— كلا ، كلا .. بل لنتكلم فيه .. فهل كانت تحبه ام لا ؟

ولم يجب سيرج .. فاستطردت اقول : « وان كان لا يجبها ،
فلماذا كان يلعب معها كما يلعب مع صبية صغيرة ؟

فاجابنى مقاطعا :

– نعم ، نعم .. ان « ا » كان مخطئا ، ولكن هذا الان قد انتهى ،
وافترقا وهما صديقان متفقان !

فسألته قائلة ، وانا مدعورة مما كنت اقول :

– ولكن هذا امر بشع .. اليست هناك نهاية اخرى ؟

– بلى .. هناك نهاية اخرى ..

ورفع يده عن وجهه المضطرب ، ونظر الى وهو يقول :

– بل هناك نهايتان مختلفتان .. ولكن ، بحق السماء ، لاتقاطعينى
بعد الان وانصتى الى فى هدوء !

ونفض سيرج ، وقد علت شفثيه ابتسامة كئيبة مؤلمة ، واستطرد
قائلا : « ان البعض يقولون ان « ا » قد جن اذ أحب « ب » حبا
غير منطقي وصرح لها به ... ولكنها اكتفت بأن سخرت منه ،
فالامر بالنسبة اليها لم يكن الا مزاحا ، اما بالنسبة اليه فكان
مشكلة حياته بأسرها .. »

فارتجفت .. وحاولت أن أقاطعه لاقول له انه ينبغي الا يتكلم
نيابة عنى .. ولكنه منعنى من ذلك ووضع يده على يدي ، وأنهى
حديثه قائلا فى صوت مضطرب : « انتظرى .. يقول أناس آخرون
انها أشفقت عليه ، وتخيلت هذه اليائسة التى لم تعرف الدنيا بعد
انها تستطيع حقا أن تحبه ، فارتضت أن تكون زوجة له .. واعتقد
هو – كالمجنون – أن حياته يمكن أن تبدأ من جديد .. ولكنها
لاحظت هى نفسها انها كانت تخدعه ، وأنه كان يخدعها .. »

وكف سيرج عن الكلام لحظة ، ثم قال فى ايجاز وقد بدا عليه
انه لم يكن فى حالة تسمح له بأن يقول أكثر من ذلك : « كفانا كلاما
فى هذا الموضوع ! »

وجاء ليجلس أمامي من جديد ، وهو يكرر قائلا : « كفى كلاما !
وكان يبدو واضحا أنه كان يترقب بلهفة كلمة مني .. وكنت أريد
حقا أن أتكلم ، ولكنني كنت عاجزة عن الكلام ، فقد كان هناك شيء
يجثم على صدري ..

ورفعت إليه عيني فرأيت شاجبا ترتعد شفته السفلى ، وكنت
أقاسي من أجله أشد الألم .. فبذلت جهدا جديدا ، ونجحت فجأة
في أن أقطع الصمت الذي كان يشلني ، وقلت بصوت بطيء مركز
كنت أخشى أن يتداعى فيعاودني العجز عن الكلام :
- ثمة نهاية ثالثة لهذه القصة ..



وتوقفت عن الكلام ، ولكنه ظل صامتا .. فأردفت قائلة :
- وتتلخص النهاية الثالثة في أن « ا » لم يكن يجب « ب » ،
فسبب لها الما .. الما كبيرا ، وكان يعتقد أن له الحق في ذلك ،
فوحل .. بل فعل ما هو أكثر من ذلك ، ففاخر بما فعل ..
وسكت لحظة قلت بعدها : « ان المزاح لم يحدث من ناحيتي
بل من ناحيتك ، فقد أحببتك من أول يوم .. »
وحيثما نطقت بكلمة « أحببتك » ، تغير صوتي بطريقة لا ارادية
.. وتحولت فجأة نبرته البطيئة المركزة الى نوع من الصياح
البيدائي أثار الذعر في نفسي !

كان سيرج واقفا أمامي شاحب الوجه ، وقد تضاعف اضطراب
شفتيه ، وانحدرت على خده دمعتان كبيرتان .. فصحت أقول في
الم وأنا أختنق من الفيظ ومن دموعي المحبوسة :
- انك مخطيء في تصوراتك وأوهامك ..

ونهضت لابتعد ، وأنا أضيف قائلة : « ولماذا .. كل هذه
« واهام ؟ ... »

ولكنه اندفع نحوي .. وأسند رأسه الى ركبتي ، وأخذت
شفتاه المرتجفتان تقبلان يدي المضطربتين ، بينما راحت عيناه

تفرقهما بالدموع وهو يتمتم قائلاً :

— آه ! يا الهى ! يا الهى ! لو أننى ..

وأخذت أردد فى صوت مرتعش :

— لماذا ؟ .. لماذا ؟ ..

ولم تكذ تنقضى خمس دقائق ، حتى كانت سونيا تسرع الى الطابق الاعلى حيث كانت ماشا ، ثم تطوف أرجاء البيت كله وهى تصيح قائلة :

— ان كاتيا ستتزوج سيرج ميخايلوفتش ..



الفصل الخامس

مفعل الزفاف

زواج بلا ضوضاء

لم يكن هناك ما يدعو لارجاء زفافنا ، ولم يكن أحد منا يرغب فى ذلك .. الا ان ماشا كانت تريد الرحيل الى موسكو لشراء بعض الحاجيات والتوصية على ثوب الزفاف . وكانت والدة سيرج تلح على ابنها فى ان يشتري عربة جديدة وأثاثا جديدا وان يبدل ستائر المنزل قبل الزواج ، ولكننا اصررنا على ان يتم ذلك فيما بعد ، وان يعقد زواجنا بعد عيد ميلادى بأسبوعين بلا ضوضاء ، ولا ثوب للزفاف ، ولا فتيات شرف ، ولا عشاء أو شمبانيا ، ودون شئ من الملحقات التقليدية للزواج ..

وقص على سيرج كم كانت امه غاضبة لان الزفاف سيتم هكذا بلا موسيقى ولا سيل من صناديق الهدايا ، ودون ان يجدد البيت بأسره كما حدث قبيل زفافها الذى تكلف ثلاثين الفا من الروبلات .. وكم بحثت من وراء ظهره فى الخزائن والصناديق والصواوين ، وعقدت اجتماعات واجريت مشاورات جدية مع « ماريوشكا » - مدبرة المنزل - بشأن بعض الابسطة والستائر « والصوانى » اللازمة ..

وفى بيتنا ، كانت ماشا تفعل نفس الشئ مع خادمتى « كوزمينشنا » ولا تقبل مزاحا فى هذا الشأن .. وكانت مقتنعة تماما باننى حين كنت أتكلم مع سيرج بشأن مستقبلنا ، فاننى لم اكن ابادل معه سوى الحديث الناعم الحلو الذى لا يبنى ولا يسمن - كما هو مألوف فى مثل موقفنا - وكان من رايها أن جوهر سعادتنا نفسه كان لا يتوقف الا على روعة حياكة ثيابى وجمال أثنائى ، وعلى مدى المهارة الفنية التى تعد بها « الاغطية » والمناشف والستائر وما اليها ..

وفي كل يوم ، كانت تحدث عدة اتصالات غريبة بين بيتى
« بروفيسكى » و « نيكولسكى » بشأن الكيفية التى ترتب بها
الامور . . ومع ان جميع مظاهر العلاقات الطيبة الحنون كانت
متوفرة بين ماشا ووالدة سيرج ، فقد كنا نشعر بأن بينهما شيئا
من الخلاف فى وجهات النظر . . كان يبدو أحيانا فى صورة
ديبلوماسية فيها كثير من الرقة والمهارة !

وكانت « تاتيانا سيمينوفنا » والدة سيرج التى توثقت معرفتى
بها ، سيدة متعجرفة من العهد البائد ، وربة بيت قاسية . . ولم
يكن سيرج يحبها كما يجب ان يحب الابن امه وحسب ، بل كان
يرى فيها أذى وافضل وارق والطف امرأة فى العالم !

والواقع ان والدة سيرج كانت معنا دائما - ومعى انا بوجه
خاص - على قدر كبير من الطيبة ، وكانت تبدى فرحها لزواج ابنها
. . ولكنى حينما أصبحت خطيبة لهذا الابن ، بدا لى أنها كانت تريد
أن تشعرنى بأنه كان يستطيع أن يتزوج فتاة افضل منى ، وأن على
الإنسى ذلك أبدا . . فكنت ادرك هذا جيدا وأوافقها على هذا
الرأى !



وفي هذين الاسبوعين الاخيرين ، كان كل منا يرى الآخر كل يوم
. . اذ كان سيرج يأتى لتناول العشاء ويبقى فى بيتنا الى منتصف
الليل . . وعلى الرغم من انه كان يقول لى كثيرا - وكنت أعرف
انه يصدقنى القول - انه لا يستطيع أن يعيش بدونى ، فانه كان
لا يقضى معى أبدا النهار كله ، وكان يتصرف بطريقة يستطيع معها
أن يتابع عنايته بأعماله . .

وظلت علاقتنا الخارجية حتى يوم الزفاف كما كانت من قبل ،
وظل الحديث يجرى بيننا بكلفة . . وكان لا يقبل حتى يدى ،
ويتجنب الفرص التى كانت تسنح له لينفرد بى . . بل ولا يحاول
أن يخلق هذه الفرص ، وكأنه كان يخاف ان يطلق العنان لذلك

الحنان الكبير الخطير الذي كان يحمله في نفسه
وكان الجو رديئا طيلة هذه الايام ، فقضينا اكثر وقتنا معا في
الغرفة ، وكان الحديث يدور بيننا في الركن الواقع بين البيسانو
والنافذة

و ذات يوم ، قال لى بينما كنا نجلس وحدنا معا - في هذا الركن -
في ساعة متأخرة :

- هل تعرفين ان هناك شيئا اريد ان احدثك عنه منذ وقت
طويل ، ولم انقطع عن التفكير فيه وانت تعزفين على البيانو ؟

- لا تقل شيئا ، فانا اعرف كل شيء ..

- احقا لا داعى للكلام ؟

- اذا كنت ترى انه من الضرورى ان تحدثنى عنه فلا بأس ..

- هل تذكرين حينما قصصت عليك قصة « ا » ، « ب » ؟

- وكيف لا اذكر هذه القصة ؟ .. وينبغى ان نسر لانها انتهت

هكذا ...

لقد اوشكت ان احطم سعادتى بيدي ، ولكنك انقذتيني ...

واسوا ما فى الامر اننى كنت اكذب حينئذ ، وان ضميرى ليشعر

بذلك واريد اليوم ان اقول لك كل شيء ..

- آه ! لا تفعل ذلك رحمة بى !

فقال لى وهو يبتسم :

- لا تخافى شيئا ، بل يجب على فقط ان ابرز موقفى .. فحينما

بدات معك الكلام كنت اريد ان اتناقش ..

- ولماذا نتناقش ؟ ان من واجبنا الا نتناقش ابدا

وصمت لحظة وهو ينظر الى ثم قال :

- وبعد ، فلم يكن ما كنت اقله مع ذلك سخفا ، اذ الواقع انه

كان لدى ما اخشاه ، وكنت على حق فى ذلك ، فانى آخذ منك كل

شيء ولا اعطيك الا القليل .. انك لا تزالين صغيرة ، وانت البرعم

الذى لم يتفتح بعد ، وتحبين لاول مرة ، بينما انا ...

فصحت قائلة :

— آه ! نعم ! قل لى الحقيقة اذن ..

ولكننى سرعان ما شعرت بالخوف من اجابته فاضفت قائلة :

— كلا ، كلا .. لا تقل لى شيئا !

فادرك على الفور ما كنت افكر فيه ، وقال :

— تريدن اذن ان تعرفى اذا كنت قد احببت من قبل ؟ ..

اليس كذلك ؟ .. فى وسعى ان اخبرك بذلك .. كلا ، اننى لم احب

.. ولم اجرّب ابدا مثل هذا الشعور ... ولذلك ، فقد رايت انه

كان يجب على ان افكر مليا قبل ان اقول لك اننى احبك ... ماذا

اعطيك ؟ الحب ؟ هذا صحيح ..

فقلت وانا انظر مباشرة فى عينيه :

— وهل الحب شىء قليل ؟

— نعم .. انه شىء قليل يا صديقتى .. قليل عليك . ان لديك

الجمال والشباب ، وكثيرا ما تمنعنى السعادة من النوم اثناء الليل

فلا اكف عن التفكير فى كيفية معيشتنا معا .. لقد عشت طويلا

.. ولكن يبدو لى مع ذلك اننى لم التق بالسعادة الا منذ ايام ،

وان حياة حلوة هادئة تنتظرنى فى بيتنا المنزل ، مع امكانيات

واسعة لفعل الخير من اجل فلاحينا الذين يسهل كثيرا تحقيق

الخير لهم والذين لم يالفوا كثيرا ان يفعل الخير من اجلهم .. ثم

ان هناك العمل ، العمل الذى يعرف الجميع انه ينتج عنه دائما

بعض النفع .. وهناك ايضا التسلية ، والطبيعة ، والكتب ،

والموسيقى ، وعطف صادر عن قلب مغمم بالحب .. تلك هى

السعادة ، وهى سعادة اسمى بكثير عن كل ما كنت احلم به ..

وهناك ، فوق كل ذلك ، صديقة مثلك ، وربما اسرة ، وباختصار :

كل ما يمكن للرجل ان يشتهيهِ فى هذه الدنيا !

فقلت له فى ايجاز :

— نعم ..

فعاد يقول :

- نعم بالنسبة الى .. انا الذى تجاوزت مرحلة الشباب ،
ولكن انت .. انك لم تعيشى بعد ، وكان من المحتمل أن تجرى وراء
السعادة فى شىء اخر ، وربما كنت تجدينها فى هذا الشىء ..
- كلا .. اننى لم أرغب أبدا فى شىء ، ولم أحب شيئا كما
أحببت هذه الحياة العائلية الحلوة ، وقد أخبرتنى منذ قليل بما
أفكر فيه وما أتمناه وأرجوه ..

فابتسم وقال :

- ان الامور تبدو لك هكذا يا صديقتى ، ولكن ما قلته يعتبر
شيئا قليلا بالنسبة اليك ..
وسكت لحظة قصيرة ، ثم كرر قائلا وقد بدت على محياه علامات
التفكير :

- ان لديك الجمال والشباب ..

ومع ذلك فقد ضقت بما قال ، لاننى كنت ارى انه لا يريد ان
يصدقنى ، ولاننى فهمت انه كان يبدو عليه انه يلومنى على جمالى
وشبابى .. فقلت له فى شىء من الغضب :

- قل لى لماذا تحببى ؟ .. الشبابى .. أم من أجلى انا نفسى ؟
فأجابنى قائلا وهو يتأملنى بنظرة فاحصة كلها اغراء :
- لست أدرى ، ولكننى أحب ..

فلم اقل شيئا ونظرت فى عينيه بحركة لا ارادية .. وفجأة ،
حدث لى شىء غريب : فقد كففت عن رؤية ما حولى ، وانمحي وجهه
من امامى .. ولم أعد اميز غير بريق عينيه اللتين كانتا امام عينى
مباشرة .. ثم بدا لى أن عينيه تنفذان الى قلبى ، واصبح كل شىء
غامضا فجأة .. ولم أعد ارى شيئا على الاطلاق ، واضطرت الى
ان اغمض عينى قليلا لانتزع نفسى من هذا الشعور المزوج بالتمعة
والفرع والذى كانت نظرتة تثيره فى نفسى

وغدا الجو صحوا فى مساء اليوم السابق ليوم زواجنا ..

واشرقت علينا أول أمسية ربيع صحوة بعد هذه الامطار التي بدا بها فصل الصيف .. كانت السماء صافية شاحبة ، وذهبت لانام وانا افكر فى ان الجو سيكون جميلا فى اليوم التالى ، يوم عرسنا واستيقظت فى ذلك الصباح والشمس فى وجهى وانا اشعر بأنه اليوم المشهود .. وكانما كان ذلك كفيلا بأن يثير الفزع والدهشة فى نفسى . ونزلت الى الحديقة ، وكانت الشمس قد اشرقت منذ لحظات واخذت تسطع من خلال اشجار التيليوالقائمة فى المر والتى كانت اغصانها المصفرة تنفض اوراقها وتغمر به الممر .. ولم يكن من المستطاع أن يجد المرء سحابة واحدة فى هذه السماء الباردة الصافية ..

وقلت أسأل نفسى : « يمكن حقا أن يكون هذا هو اليوم الذى كنت أحلم به ؟ .. وهل من الممكن الا استيقظ هنا غدا ، وانما فى بيت « نيكولسكى » هذا بأعمدته ، وهو بيت غريب الآن بالنسبة انى ! هل حقا اننى انتظره واترقب وصوله هنا ، واننى أتحدث عنه فى المساء مع ماشا ؟ واننى لن اجلس بعد ذلك امام البيانو الى جواره فى ردهة بيتنا بيوكروفسكى ؟ واننى لن اوصله وانا ارتجف خوفا اثناء سيرى خلفه فى ظلام الليل البهيم ؟

ومع ذلك ، فقد تذكرت أنه قال لى بالامس ان هذه كانت آخر مرة يأتى الى فيها . وكانت ماشا من جهة أخرى قد حثتنى على أن اجرب ارتداء ثوب الزفاف ، فكننت اصدق احيانا وبعدها يخامرني الشك من جديد .. ترى هل سأبدأ حقا منذ هذا اليوم فى ان اعيش مع حماة ، وبغير « نادين » ولا ماشا ولا جريجوار العجوز ؟ واننى فى المساء لن اقبل خادمتى ، ولن اسمعها تقول لى وهى ترسم علامة الصليب حسب العادة القديمة : « طاب مساؤك يا آنسة » ؟ ان اعطى سونيا - بعد الآن - دروسها المعتادة والعب معها ؟ واقرع بقبضة يدي جدار غرفتها فى الصباح فأسمع ضحكها الرنانة ؟ وهل من الممكن ان أصبح اليوم غريبة تقريبا عن نفسى ، واعيش حياة جديدة تركزت بها آميائى وآمالى فى .. وهل من الممكن ان

يستمر احساسى بالنشوة والسعادة لهذه الحياة الجديدة ؟
وكنت انتظر سيرج بصبر نافذ لشدة ما كان عسيرا على أن اظل
وحدى مع هذه الافكار .. وجاء سيرج مبكرا ، فايقنت فقط في
هذه اللحظة اننى ساكون زوجته في نفس هذا اليوم ، ولم يعد
بصحب هذه الفكرة شىء يثير الفزع في نفسى ..

وذهبنا الى الكنيسة لنستمع الى صلوات اقيمت من اجل والدى
.. واخذت افكر اثناء عودتنا الى البيت ، وانا استند في صمت الى
ذراع الرجل الذى كان خير صديق لمن كنت افكر فيه .. وليته كان
لا يزال في هذه الدنيا ! ..

لقد كان راسى ملتصقا ببلاط الكنيسة البارد طيلة الوقت الذى
كنت راكعة فيه داخل الكنيسة اثناء تلاوة الصلوات .. وكنت قد
تذكرت والدى في عنف واحسست ان روحه كانت تفهمنى وتبارك
اختيارى ، وتصورت ان روحه كانت تحلق فوقنا وتنزل يركتها
على ..

وكانت هذه الذكريات والآمال والسعادة والاحزان تمتزج في نفسى
فى شعور واحد رهيب وعذب معا ، وهو شعور كان يتمشى مع هذا
الجو الراكد العنيف ، وهذا الهدوء ، وهذه الحقول الجرداء ، وهذه
السماء الشاحبة التى كانت اشعة شمسها اللامعة الواهنة تحاول
عبثا ان تحرق خدى ..

وايقنت فى تلك اللحظات ان الرجل الذى يصاحبنى ، كان يفهم
مشاعرى ويشاطرنى اياها .. لقد كان يسير فى صمت وبخطى
بطيئة . وكنت من آن لآخر اتطلع الى وجهه ، فأرى علامات التركيز
النفسى مرتسمة عليه ، وهى حالة من حالات النفس تتجرد فيها
من الحزن ومن السرور معا .. وكان وجهه ينسجم هكذا مع
الطبيعة ومع قلبى ..

والتفت الى سيرج فجأة ، فلاحظت انه كان لديه ما يريد ان

يفضى به الى .. ماذا ؟ ان يفضى الى بما يشغل باله ؟ ولكنه في تلك اللحظة حدثني عن والدى بالذات ، ثم اضاف قائلا دون ان يذكر اسمه : « لقد حدث ذات يوم ان قال لى مازحا : انك ستتزوج صغيرتى كاتيا »

وجذبني اليه - في شدة - بذراعه التى كنت استند اليها ، وقال لى : « كم كان والدى خليقا بأن يكون سعيدا اليوم ! » ثم تغفل بنظرته في اعماق عيني ، واستطرد يقول : « نعم .. انك كنت لا تزالين طفلة ، وكنت حينئذ اقبل عينيك لمجرد انهما كانتا تشبهان عيني ، ولم يدر بخلدى قط انهما ستكونان عزيزتين لى في يوم من الايام لذاتهما فقط .. »

كنا نسير على مهل في الطريق الضيق غير المرصوف الذى يتوسط الحقول ولا يطرقه كثير من الناس .. وكنا نطأ بأقدامنا ذلك القش المتناثر على الارض ولا نسمع الا وقع خطانا واصواتنا .. وكانت الشمس تنشر اشعة خالية من الدفء .. وكانت اصواتنا حين نتكلم تحدث اصدااء تتردد في الفضاء وتظل معلقة فوق رؤوسنا وسط هذا الجو الراكد .. وكان يبدو أننا وحدنا في هذا العالم بأسره تحت هذه القبة اللازوردية التى كانت تضرب فيها اشعة الشمس الغائرة ..

وحينما بلغنا البيت ، وجدنا والدته هناك ومعها بعض الضيوف الذين لم نستطع ان نتجنب دعوتهم .. ولم اصبح معه على انفراد الا لحظة خروجنا من الكنيسة وركوبنا العربة للذهاب الى بيت نيكولسكى

كانت الكنيسة تكاد تكون خالية ، وبنظرة سريعة لمحت امه واقفة على بساط الى جوار المحراب ، وكانت ماشا ترتدى قبعة مزينة باشرطة ملونة ، وكان خداهما مبتلين بالدموع .. وكان بالكنيسة ايضا اثنان او ثلاثة من مزارعينا ، كانوا ينظرون الى فى فضول ..

واخذت انصت الى الصلوات وأرددها ، ولكن دون أن يكون لها
صدى في نفسى ، وكنت لا أستطيع ان اصلى انا نفسى .. وانما كنت
انظر في شروود الى الصور والشموع والصليب الموشى الذى كان
يتدلى على صدر القسيس ، والى صورة العذراء مريم وهى تحمل
السيد المسيح ، والى نوافذ الكنيسة .. فلا افهم شيئا من كل
ذلك ، بل كنت اشعر فقط بأن شيئا غير عادى كان يجرى من
أجلى ..

والتفت القسيس نحونا وفى يده الصليب ، فهنانا وقال انه كان
قد عمدنى ، وأن الله قد قدر له كذلك أن يتم زواجى على يديه ..
وقبلتنا ماشا ووالدة سرج ... ثم سمعت جريجوار ينادى العربية
فاندهشت .. وسرعان ما تملكنى الذعر اذ أدركت أن كل شيء قد
انتهى ، دون أن يحدث فى نفسى ما يقابل ذلك الرباط المقدس الذى
تم بيننا منذ لحظة !

وقبل كل منا الآخر ، فبدت لى هذه القبلة غريبة بالنسبة الى
شعورى الدفين .. حتى اننى لم أستطع أن أمنع نفسى من أن
اساءل : « هل هذا كل شيء ؟ »

وخرجنا الى مدخل الكنيسة فسمعت دويا كبيرا .. وهبت
نسمات منعشة عطرت وجهى ، بينما كان سرج يعيننى على أن
اتخذ مكانى فى العربية وقد تأبط قبعته ..

ومن خلال زجاج العربية ، لمحت ضوء القمر يتموج كما يحدث
عادة فى الليالى الباردة ، وجلس سرج الى جوارى وأغلق الباب .
وشعرت فى تلك اللحظة بأن شيئا يخترق قلبى ، كما لو كانت الثقة
التي أغلق بها باب العربية قد جرحت شعورى !

واصطدمت عجلات العربية بحجر فى الطريق ، ثم دخلنا بعد ذلك
فى طريق آخر أكثر حسانا .. وكنت أنزوى فى ركن العربية أتأمل
الحقول التى كان القمر يغمرها بفيض من ضيائه والطريق الذى
كان يبدو أنه يجرى . ودون أن أنظر الى سرج ، كنت اشعر بأنه

ملتصق بى ، ففكرت قائلة فى نفسى : « أهذا هو كل ما تمنحه لى هذه الدقيقة الاولى التى كنت انتظر منها أشياء كثيرة ؟ » وشعرت حينئذ بالاذلال والاهانة فى نفس الوقت ، وأنا أجد نفسى جالسة هكذا وحدى معه ، وقريبة جدا اليه !

فالتفت اليه وفى نيتى أن أقول له أى شىء ، ولكن لم تخرج كلمة واحدة من بين شفتى .. وكان يبدو أنه لم يعد هناك أى اثر فى نفسى لحنان قديم ، وأن شعورى هذا بالفزع والاهانة قد حل تماما محل هذا الحنان !

و!جاء سيرج فى رفق على نظرتى قائلا :

- لم اكن أجرؤ حتى هذه اللحظة على الاعتقاد بأن هذا كان يمكن أن يحدث .. !

- وأنا .. لست ادرى لماذا أنا خائفة !

فأمسك يدي ومال نحوى قائلا :

- هل أنت خائفة منى يا كاتيا ؟

وكانت يدي تستند الى يده بلا حياة .. وقلبي يكاد يكف عن الحركة ..

فتمتمت قائلة :

- نعم ..

ولكن ، فى نفس اللحظة ، أحسست بقلبي يدق فجأة بعنف أكثر ، وارتجفت يدي وهى تمسك بيده .. وبحثت عيناي عن عينيه فى شبه الظلام ، وشعرت فجأة بأننى لم أعد خائفة منه ، وأن هذا الفزع لم يكن سوى الحب .. الحب الجديد الطارئ الذى ازداد قوة وحنانا عن ذى قبل .. وشعرت بأننى أصبحت ملكا له بكل مشاعرى ، واننى كنت سعيدة لوقوعى تحت سلطانه !

الفصل السادس

بعد الزواج

العروس والحماة

وبدا لنا ان الايام والاسابيع ، بل وشهرين كاملين من حياة العزلة في الريف قد مرت بنا دون ان نشعر ، ولكن احساسيس هذين الشهرين وسعادتهما كانت كافية للء حياة بأكملها .. ولم تتحقق احلامنا المتعلقة بطريقة ترتيب حياتنا - كما كنا ننتظر - ومع ذلك ، فلم تكن الحقيقة بأقل من خيالنا !

ولم تكن حياتنا في تلك الفترة حياة العمل البحت الحافلة بالتكشف والواجبات والتضحيات على نحو ما كنت اتخيلها ايام خطبتى ، بل على العكس كنت اشعر فيها بشعور الحب الانانى الاخاذ ، وبمسررات لا حد لها ، وبأننى نسيت كل شء في العالم .. والواقع ان سيرج كان يذهب في بعض الاحيان الى غرفة مكتبه حيث ينهمك في بعض الاعمال ، كما كان يذهب احيانا اخرى الى المدينة من اجل أعماله كذلك ، ويلاحظ شئون زراعته .. فكنت الاحظ انه كان ينتزع نفسه من عندى انتزاعا ، وكان يقاسى من جراء ذلك الما كبيرا .. وكان يعترف لى بعد ذلك بنفسه بأن المكان الذى لا اكون انا فيه يبدو له مظلما كئيبا لا حياة فيه ..

وكنت احاول ان اتسلى بالقراءة أو أشغل نفسى بالموسيقى وبحماتى وبنشاط المدارس ، اثناء غيابه .. ولكن ذهنى كان دائما معه وخواطرى وافكارى كلها تدور حوله ، ونفسى تتلهف لرؤيته ، فقد كان سيرج هو المخلوق الوحيد في هذا الكون بالنسبة الى ، وكنت اعتبره اجمل وأظهر من فيه .. ومن ثم فلم اكن أستطيع ان اعيش من اجل سواه ، وكنت احرص على أن اظل في عينيه دائما كما كان يريدنى أن اكون .. وكان هو يرانى ايضا اجمل نساء

العالم واكثرهن سحرا ، ويسبغ على كل صفات الكمال الممكنة ،
فكنت اجتهد في أن اكون في عينيه احسن زوجة في الوجود ..



وكان بيتنا مسكنا ريفيا قديما ، توالت عليه بضعة اجيال من
الآباء والاجداد .. كان كل منهم يتبادل وزوجته الحب ، ويعتبران
انهما اسعد الأزواج . وكانت تشع من كل شيء ، ومن كل ركن
في هذا البيت ، ذكريات عائلية طيبة نقية .. ولم اكد اضع قدمي
فيه حتى شعرت بأن هذه الذكريات قد اصبحت ذكرياتي وصارت
جزءا من كياني ..

وكانت تاتيانا سيمينوفنا قد اعدت هذا البيت ونسقته على
الطريقة القديمة . ولست أستطيع أن اقول ان كل ما فيه كان
جميلا أو انيقا ، ولكنه كان دون شك نظيفا منظما يوحى بالاحترام ،
ابتداء من ادوات المائدة الى الاطعمة والاثاث .. فكان الاثاث مرتبا
في الصالون في ذوق ونظام ، وكانت الجدران مزينة بالصور ،
والارضية تكسوها أبسطة الاسرة القديمة . وكان بالصالون الصغير
بيانو قديم ، وصوانان للملابس مختلفا الشكل ، وأريكة ، ومناضد
مطعمة بالنحاس .. وكانت غرفتي الخاصة قد اعدت تحت اشراف
السيدة تاتيانا سيمينوفنا وعنايتها ، وتضم أجمل ما في البيت من
قطع الاثاث . وكنت لا اجسرو في أول الامر على النظر الى هذه
الاشياء الابعين الخجل ، ولكنها ما لبثت أن اصبحت عزيزة علي ..
وكاننا اصدقاء !

وكنا لا نسمع صوتا لحماتي في البيت .. وكان كل شيء فيه
يسير في نظام تام وكانه ساعة مضبوطة ، على الرغم من أن البيت
كان يضم عددا كبيرا من الناس . وكانوا جميعا ينتعلون احذية
طرية لا كعب لها ، لان أصوات النعال وقرقعة الكعوب كانت ابفض
الاشياء الى تاتيانا سيمينوفنا ! .. وكانوا جميعا يرتعدون أمام
السيدة العجوز ، ولكنهم كانوا يؤدون واجبهم نحوي في رضا

وسرور ، ويتسابقون في سبيل خدمتى !

وكان خدَم البيت يفسلون « ارضيته » بانتظام ، وينظفون ابسطنه في كل يوم سبت ، ويرتلون التراتيل شكرا لله في اليوم الاول من كل شهر ، ويغمسون ايديهم فى الماء المبارك .. وفى عيد ميلاد تاتيانا سيمينوفنا وعيد ميلاد ابنها سيرج - ثم فى عيد ميلادى انا الذى حل لأول مرة فى الخريف - كانت تقام وليمة يدعى اليها كل الجيران .. وكان ذلك يحدث دائما بنفس الطريقة التى كان يتم بها منذ اقدم زمن تستطيع ان تعيه ذاكرة تاتيانا سيمينوفنا

وكان زوجى لا يتدخل ابدا فى شىء من شئون البيت ، وانما كان يقنع بالعناية بشئون الزراعة والفلاحين ، وكان يوليها رعاية خاصة .. فكان يستيقظ فى ساعة مبكرة جدا حتى اثناء الشتاء ، الى حد اننى لم اكن أستطيع ان اراه قبل خروجه .. ثم كان يعود عادة ساعة تناول الشاى ، وكنا نتناوله على انفراد . وبعد ان نتحدث معا فى شئون الزراعة وما يتعلق بها من مشاكل ، كانت تملكه - بصورة تكاد تكون دائمة - تلك الحالة النفسية المرحبة الخاصة به التى كنا نطلق عليها حالة « الانطلاق الفطرى » ..

وكثيرا ما كنت أسأله عما فعله فى الصباح ، فكان يقص على حينئذ اعمالا جنونية تجعلنا نختنق من الضحك .. وكنت اطلب منه احيانا ان يقص على قصة جادة ، فكان يقصها على وهو يغالب ابتسامة كانت تريد ان تغفز الى شفثيه ، وكنت أنظر الى عينيه وحركات شفثيه فلا افهم شيئا مما كان يقول ، لاننى كنت اتسلى فقط بالتطلع الى عينيه والاستمتاع بصوته ..

وكان يقول لى احيانا : « هيا يا كاتيا .. كررى لى ما كنت اقول ! » .. ولكننى كنت لا أستطيع ان اكرر له اى شىء !



كانت تاتيانا سيمينوفنا لا تظهر قبل العشاء ، وتتناول الشاى على انفراد .. وكانت لا تبلغنا تحياتها ، ولا تعبر لنا عن تمنياتها ، الا

عن طريق «سفراء» .. ولذلك ، فأننى كنت الاقى مشقة فى ان امنع نفسى من الضحك حينما كانت خادمتها الخاصة تاتينا - وقد عقدت ذراعيها على صدرها - لتبلغنا فى لهجة رزينة متزنة ان سيدتها امرتها بان تستفسر منا عما اذا كنا قد نمنا جيدا وعن راينا فى الحلوى ..

وكان من النادر ان نبقى معا انا وسيرج حتى تحين ساعة الغداء، فكنت العب أو أقرأ وحدى ، وكان هو يكتب أو يخرج من جديد .. ولكننا كنا نهبط الى الصالون فى تمام الساعة الرابعة للغداء ، فكانت حماتى تخرج من غرفتها .. فيظهر حينئذ من حولها بعض النبلاء المساكين ، ونفر من الحجاج الذين كان يقيم بالبيت اثنان أو ثلاثة منهم بصورة دائمة

وفى كل يوم ، وفقا للتقاليد القديمة ، كان زوجى يقدم ذراعه لوالدته ليذهب بها الى غرفة المائدة ، وكانت هى تطلب منه ان يقدم ذراعه الاخرى ..



وكانت حماتى تتصدر المائدة .. وكان الحديث يتخذ صفة جدية متزنة ممزوجة بطابع يكاد يكون رسميا ، ولكن الكلمات التى كنت أبادلها مع سيرج كانت تحدث شيئا من التنوع اللطيف فى ذلك الجو الرسمى الذى كان يسود المائدة !

وبعد العشاء ، كانت حماتى تجلس فى الصالون فى مقعد كبير وتأخذ فى « تفتيح » صفحات الكتب الجديدة التى تكون قد وصلت الى البيت ، بينما كنا نحن نقرا بصوت عال أو نذهب الى الصالون الصغير ونجلس امام البيانو .. ولطالما قرانا كثيرا اثناء هذا الوقت ، ولكن الموسيقى كانت لا تزال متعتنا المفضلة .. وكانت تهز فى قلوبنا - فى كل مرة - اوتارا جديدة وتكشف لكل منا شيئا جديدا عن الآخر . وحينما كنت أعزف الالحان المفضلة عند سيرج ، فانه كان يجلس على أريكة بعيدة وكنت لا اكاد المحه .. وكان يجتهد

في اخفاء المشاعر التي كانت تثيرها الموسيقى في نفسه بدافع من الحياء .. ولكنني غالبا ماكنت اترك البيانو في اللحظة التي كان لاينتظر فيها مني ذلك على الاطلاق ، وأسرع اليه وأنا أحاول أن افاجئه وفي ملامحه آثار انفعاله ، وأن افاجيء كذلك بريقا يكاد يكون سماويا صادرا من نظراته الشاردة التي كان يحاول عبثا أن يخفيها عنى ..

وكنت اعود لأقدم شاي المساء في الصالون الكبير ، وكانت الاسرة تجتمع بكامل هيئتها حول المائدة من جديد . ولطالما اضطربت من هذه الجلسة الرسمية الى جوار الموقد - ومن فوقه اناء الشاي - وكاننا في محكمة ، كماكنت اضطرب من توزيع الاكواب والاقداح .. وكان يبدو لى على الدوام اننى لم اكن جديرة بعد بهذا الشرف ، واننى صغيرة السن أكثر مما ينبغي ، وطائشة الى الحد الذي لا أستطيع معه أن أتولى شئون موقد كبير كهذا ، وأن اضع كوبا فوق « صينية » « نيكيتا » واضيف قائلة : « انها من أجل « بير ايفانوفيتش » .. وهذه من أجل « ماري مينيشنا » .. ثم أسأل كل واحد من الجالسين قائلة : « هل يكفي مابه من السكر ؟ » واترك بعض قطع السكر بعد ذلك للخادم العجوز وللخدم الآخرين . وكان زوجي كثيرا مايقول : « حسنا .. حسنا جدا ! .. انك تقومين بدور سيدة كبيرة ! » فكان ذلك يثير في نفسى مزيدا من الخجل ..



وبعد تناول الشاي ، كانت حماى تلعب الورق او تكلف « ماري مينيشنا » بأن تقرأ لها فيه الطالع ، وكانت تقبل كل واحد منا بعد ذلك وتباركنا ، فنذهب الى الجناح المخصص لنا في البيت ..

ومع ذلك ، فقد كنا نتابع السهرة معا على انفراد - في اكثر الاحيان - الى مابعد منتصف الليل ، فكان ذلك اجمل واحلى وقت يمر بنا .. كان سيرج يقص على ماضيه ، وكنا نرسم الخطط

ونضع المشاريع للمستقبل ، كما كنا نتفلسف في بعض الاحيان وناقش هذا الرأي أو ذلك .. وكنا نحاول أن نقول مانقوله بغير جلبه أو ضوضاء حتى لايسمع حديثنا أحد ..

لقد كنت أعيش أنا وسرج كغرباء في هذا البيت القديم الكبير الذى كانت تجثم فيه على كل الصدور « تاتيانا سيمينوفنا » مع روح العهد القديم القاسية !

وكنت أشعر نحو حماتى بالاحترام ، مقرونا بشيء من الفزع ، وكذلك كان شعورى نحو كل أهل البيت والخادماات المسنات ، ونحو الصور وقطع الاثاث .. كما كنت أشعر في نفس الوقت بأننى أنا وزوجى لسنا هنا في مكاننا تماما ، وبأن علينا أن نلزم جانب الحذر ونحن نعيش في هذا البيت !

ولازلت أذكر الى اليوم ذلك النظام القاسى ، وهذا العدد الهائل من الناس الفضوليين العاطلين بالوراثة الذين كانوا يعيشون في بيتنا والذين كنت أحتملهم بصعوبة ! .. ولكن هذا الجو نفسه كان يحيى جنبنا المتبادل ويقويه ، وكان كل منا يحذر جهد طاقته من أن يبدى استنكاره لشيء في البيت .. وكنت أثور في بعض الاحيان من جراء هذا الهدوء وهذا التسامح ، ومن جراء هذا النوع من عدم الاكتراث لكل شيء ، وكنت أتع مثل هذا السلوك بالضعف !



وذات يوم ، أظهرت لزوجى ما أعانيه من ضيق فأجابنى قائلا : « عزيزتى كاتيا .. هل يستطيع المرء أن يبدى غضبه من شيء كأننا ماكان بينما يكون سعيدا مثلى ؟ .. انه لاهون على المرء أن يتنازل للآخرين عن الكثير من حقوقه ورغباته - من أن يخضعهم لارادته .. هذه هى عقيدتى منذ زمن طويل ، كما أنتى مقتنع بأنه ليس هناك موقف لايتطيع المرء فيه أن يكون سعيدا .. ان الامور كلها تسير - بالنسبة الينا - على خير وجه .. ولم أعد أعرف الغضب

أو الانفعال .. واننى أحس اليوم انه ليس هناك شيء واحد يبعث على الضيق أو التذمر .. ولكننى أعتقد - برغم ذلك - أن «الأحسن عدو لما هو حسن» .. أتصدقيننى اذا قلت لك ان الخوف يملككنى حينما أسمع جرس الباب يدق ، وحينما أتسلم خطابا .. بل وفى كل صباح حينما أستيقظ .. وهو خوف ناتج عن خشيتى من أن يتغير أى شيء .. اذ اننى اشعر انه ليس هناك شيء يمكن أن يساوى اللحظة الحاضرة !»

والحق اننى كنت أصدق سيرج .. ولكننى كنت لا افهمه ، وكنت أجد نفسى فى حالة طيبة ، وأشعر أن كل شيء يسير كما كان ينبغى أن يكون ، وأن هناك فى أماكن أخرى أنواعا أخرى من السعادة ولكنها ليست أكبر من سعادتى وان كانت تختلف عنها !



وانقضى شهران على هذا المنوال ، ثم أقبل الشتاء فجأة ببرده وأعاصيره .. ودواماته . وعلى الرغم من أن سيرج كان الى جوارى ، فقد بدأت أشعر بأننى وحيدة ، وبأن الحياة ليست الا تكرارا رتيبيا ، وبأنها لا تقدم لى أو له أى جديد ، وبأننا كنا - على العكس - كأننا نعود دائما الى الوراء ..

وأخذ سيرج ينشغل بأعماله أكثر مما كان يفعل من قبل .. وبدأ لى مرة أخرى انه كان هناك فى قرارة نفسه شبه عالم خاص ، كان لا يريد أن يشركنى فيه !

وكان يشرنى منه صفاؤه الذى لايمكن تعكيره .. وكنت أحبه كما كنت أفعل من قبل ، كما كنت سعيدة بحبه كما كنت من قبل ، ولكن حبى ظل جامدا على حالته ولم يعد ينمو ويزداد .. كما كان هناك الى جانب الحب شعور آخر أخذ يتسلل الى نفسى ، شعور جديد لا أعرفه كان يملؤنى بالاضطراب !



وكان قليلا بالنسبة الى أن أستمر فى حبر ترتيب بعدما شعرت بتلك

السعادة الكبرى ، وأنا احبه لأول مرة .. فقد كنت في مجال المشاعر بحاجة الى الحركة والمغامرة والتضحية بالنفس ، اذ كان هناك في نفسي فائض من الطاقة لايجد له متنفسا في حياتنا الهادئة الرتيبة ، وكانت هناك ايضا انطلاقات من الحزن كنت احاول ان اخفيها عنه . وكانها كانت سوءا ، واندفاعات من الحنان العنيف والمرح الذي كان يثير فزعه ..

وكان سيرج يتابع ملاحظة حالتى النفسية ، كما كان يفعل فيما مضى .. واقترح على ذات يوم ان نرحل الى المدينة ، ولكننى طلبت منه الان نذهب اليها والا نغير شيئا في نوع الحياة التى كنا نعيشها ، فقد كنت سعيدة حقا .. ولكننى كنت اتعذب وانا ارى ان تلك السعادة لم تأت لى معها بأى عمل أو تضحية ، فى الوقت الذى كنت اشعر فيه بكل قوى العمل والتضحية تذبل وتثن فى نفسى !

وكنت احبه ، وأرى اننى كل شيء بالنسبة اليه .. ولكننى كنت ارجب فى ان يرى الجميع حينا ، وان يمنعنى الناس من حبه ، وأن احبه بالرغم من ذلك .. لقد كانت نفسى ومشاعرى تجدان مجالا لاشباع رغباتهما ، ولكن كان هناك مع ذلك شعور الشباب بالحاجة الى الحركة ، الذى كان لايجد مايشبعه الى درجة كافية فى حياتنا الهادئة !

لماذا كان يقول لى اننا نستطيع الذهاب الى المدينة حينما كنت ارجب فى ذلك ؟ ولو انه لم يقل لى ذلك فلربما فهمت ان هذا الشعور الذى كان يرضينى كان من جانبى خيالا مفسدا وخطا وذنبا ..

وفى ذلك الحين ، جال بخاطرى - بطريقة لا ارادية - اننى كنت استطيع ان انتزع نفسى من الضيق ، عن طريق الذهاب الى المدينة .. وكان ذلك معناه - من جهة اخرى - انتزاع سيرج من كل ما كان يحبه ، فكنت اشعر حينئذ بالخجل ، وكان من الصعب على ان اتصور اننى ارغمه على هذه التضحية من اجلى ..

كان الوقت يمر ، والجليد يتراكم اكثر واكثر الى جوار جدران البيت .. وكنا بمفردنا دائما ، ودائما كل منا في وجه الآخر ، في حين انه كان هناك في مكان آخر لا اعرفه - وبين الضوضاء والبهرج - جمهور يروح ويفدو وهو يلهو أو يقاسى دون أن يفكر فينا أو في حياتنا الخفية للغاية ..



وكان أسوأ ما في الامر بالنسبة الى ، شعورى بأن سلسلة من العادات والتقاليد المتوارثة كانت تضيق الخناق على حياتنا كل يوم بقوة اكثر ، وتصبها في قالب واضح المعالم ، وأن شعورنا نفسه كان على وشك أن يستعبد ويخضع لقانون زمننا هذا الجامد الذى يسير دائما على وتيرة واحدة !

وكان علينا في الصباح أن نكون مرحين ، وأن نبدي احترامنا للآخرين اثناء تناول الغداء ، وأن نظهر حناننا في المساء .. وكنت أقول في نفسى : « ترى هل ما فعله خير ؟ »

أما هو فكان يقول : « ان مارستحق الاعجاب حقا هو أن يفعل المرء الخير وأن يعيش شريفا »

وكان الوقت لا يزال متسعا امامنا لنفعل ذلك .. ولكن كانت هناك اشياء اخرى لا اقوى على القيام بها سوى اليوم فحسب .. ولم يكن ذلك مايلزمنى لمواجهة حالتى النفسية .. وانما كان يلزمنى الكفاح ، وأن يكون الشعور مرشدا لى فى الحياة ، لا أن توجه الحياة شعورى . وكنت أتمنى أن أقرب من حافة الهاوية ثم أخاطب سيرج قائلة : « لم يعد أمامى غير خطوة واحدة وأتردى فى الهاوية .. ولم تتبق سوى حركة واحدة وأسقط هالكة » .. . وكنت أتصور أن وجهه سوف يشحب حينذاك ، وسوف يمسك بى بيديه القويتين ، ثم ينتزعنى من الحافة ، ويحملنى معه بعد ذلك الى حيث يشاء ..

وكانت حالتى النفسية هذه تؤثر على صحتى حتى تعبت

أعصابى . وذات صباح ، أحسست بأن حالتى أكثر سوءاً من المعتاد . وعاد سيرج من عند مأمور الشرطة بمزاج سيئ للغاية ، ولم يكن هذا يحدث له إلا نادراً .. وحينما لاحظت ذلك سألته عن السبب ، ولكنه لم يرد أن يخبرنى بشيء ، واكتفى بأن قال أن الأمر لا أهمية له ..



وفيما بعد ، علمت أن مأمور الشرطة قد استدعى طائفة من فلاحينا وطلب منهم شيئاً غير مشروع ، ولما لم يقبل زوجى هدده المأمور . ولكن زوجى لم يستسلم لهذا التهديد .. وكان يرى أن الأمر يدعو الى السخرية ، فلم يشأ أن يحدثنى عنه . ولكن خيل الى أنه لم يشأ أن يخبرنى بشيء لانه كان ينظر الى كطفلة لم تنضج بعد النضوج الكافى ..

وابتعدت عنه فى صمت دون أن أنطق بكلمة واحدة .. فذهب غاضباً الى غرفة مكتبه ، وأغلق على نفسه الباب .. وجلست أنا على الأريكة وأنا أشعر برغبة فى البكاء ..

ورحت أحدث نفسى قائلة : « لماذا يلح فى اذلالى بهدوئه هذا ؟ ولماذا يعتبر الحق فى جانبه دائماً ؟ اليس من حقى - بدورى - أن أشعر بالضيق والفراغ ، وأن أعيش وأتحرك والا ابقى دائماً فى نفس المكان احيا حياة رتيبة كل مافيهما يجرى على وتيرة واحدة ؟ .. اننى أريد أن أسير الى الامام كل يوم ، بل وكل ساعة .. اننى أريد التجديد ، بينما هو يجب أن يبقى فى مكانه وأن يبقينى معه ! .. ومع ذلك ، فمن السهل عليه أن يرضينى ! .. فهو ليس فى حاجة الى أن يصحبنى الى المدينة كى يرضينى .. فقط ، يجب عليه أن يكون مثلى محباً للتغيير والحركة والتجديد ، والا يحاول تحطيم نفسه أو الضغط عليها .. أى يجب - بكل بساطة - أن يعيش . وهو نفسه ينصحنى بذلك ، ولكنه لايفعله ..

وأحسست بالدموع تملأ عيني ، وبقلى ينقبض ، وغضبى يزداد

عليه .. ووجدتني اندفع اليه في مكتبه ، فرايته جالسا يكتب .
ولما سمع وقع خطواتي ، التفت نحوي وظل ينظر الى لحظة في
هدوء وعدم اكتراث ، ثم استأنف الكتابة ..

ولم تعجبني نظرتيه .. وبدلا من اتقدم نحوه ، مكثت الى جوار
مكتبته ، وفتحت كتابا واخذت القى نظرة على صفحاته . وحينئذ
التف نحوي من جديد وهو يقول :

— كاتيا .. انك على غير عادتك

ولم اجب الا بنظرة باردة .. فهز رأسه وابتسم في شيء من
الخبجل ، ولكنني — لأول مرة — لم اجب على ابتسامته بابتسامة
مثلها ، واكتفيت بأن قلت أسأله :

— ماذا كان بك هذا الصباح ؟ لماذا لم تقل لي شيئا ؟

فقال :

— انه شيء تافه ! .. مضايقة صغيرة . ومع ذلك ، لست أستطيع
ان أقص عليك خبرها الآن . لقد بعثوا باثنين من الفلاحين الى
المدينة ..

ولكنني قاطعته قائلة :

— ولماذا لم تقل لي ذلك حينما سألتك ؟

فقال :

— كان من الممكن ان أقول لك حينئذ شيئا سخيفا .. فقد كنت

غاضبا ..

— كان يجدر بك ان تخبرني بذلك حينئذ ..

— لماذا ؟

فقلت أسأله بدوري :

— ولماذا تعتقد دائما انني لا أستطيع مساعدتك في أي شيء

فوضع قلمه جانبا ثم قال :

— لا شيء من هذا القبيل .. فانا لا أستطيع ان أعيش بدونك ،

واعتبرك عوناً لى فى كل الامور ، بل ولا اعتقد ان شيئاً يمكن ان يتم بدونك ..

واطلق ضحكة صغيرة ، ثم عاد يقول :
- لقد جئت فى الوقت المناسب تماماً ! .. اتنى اعيش لك وحدك .. ولا شىء اراه جميلاً هنا الا بوجودك ..
فقلت بلهجة اثارت دهشته :

- اعرف ذلك .. انك تعتبرنى طفلة يجب ان يعمل الانسان على ترضيتها وتهديتها .. كلا .. اننى لا اريد هذا الهدوء .. كفانى هدوءاً ! ..

فاندفع يقول مقاطعاً ، كما لو كان يخشى ان يتيح لى فرصة لاقول كل شىء :

- هيا اذن .. فكرى فى المشكلة قليلاً واخبرينى برايك ..
فقلت فى شىء من الحدة :
- لم اعد اريد ذلك ..

واحسست برغبة فى ان اكرر صفو هدوئه ، على الرغم من اننى كنت اريد ان اسمع منه كل شىء ، فأضفت قائلة :

- اننى اريد ان اعيش مثلك تماماً ، لا ان اعيش على هامش الحياة .. !

وارتسمت على ملامحه امارات عنف والم كبير ، فعدت اقول :
- اريد ان اعيش معك على قدم المساواة ..

ولكننى لم اتم كلامى من فرط ما رايت على وجهه من امارات الاسى ، بينما استطرده يقول بعد لحظة من الصمت :

- وفى اى شىء لا تمشين معى على قدم المساواة ؟ ان مشكلة الفلاحين ومأمور الشرطة تخصنى وحدى وليست من شأنك !
فقلت :

- نعم ، ولكن الامر لا يتعلق بهذه المشكلة فحسب ..
فأضاف يقول :

– حاولى ان تفهمينى .. اننى اعرف ان الهموم تؤلمنى وتؤلمك
فى نفس الوقت .. واعرف كذلك اننى احبك ، ولذا احاول ان ابعد
عك الهموم .. ان حياتى هى حبنى لك .. والامور تسير هكذا ،
فلا تمنعينى اذن من ان اعيش ..

فقلت دون ان انظر اليه :

– انك دائما على حق ..

وكنت احس بصدمة لان نفسه كانت صافية وهادئة هذه المرة
ايضا ، بينما كانت نفسى تجيش بالغضب وبشعور اقرب الى الندم .
قال :

– كاتيا ! ماذا بك ؟ .. ان الامر لا يتعلق بمعرفة الجانب الذى
معه الحق ، وانما يتعلق بشيء مختلف تماما .. لماذا تحملين على ؟
.. ارجو الا تجيبى فى الحال . فلكرى اولا ثم صارحينى برايك .
انك غاضبة منى ، ولاشك انك محقة فى ذلك .. ولكن ارجو ان
تعرفينى بذنبى ..

وكيف كنت استطيع ان اخبره بكل ما كان يكمن فى قرارة نفسى؟
لقد شعرت باضطراب كبير اذ ادركت انه تسلسل بسرعة الى مايدور
فى ذهنى ، ووجدت نفسى امامه – من جديد – كطفلة لا تستطيع
ان تفعل شيئا الا ويفهمه ..

قلت :

– اننى لست ضدك .. فقط اشعر بالضيق واريد الا اتضايق
.. ولكن هانتذا تقول ان الامور ينبغى ان تكون هكذا .. وانت
على حق مرة اخرى ..

ونظرت اليه وانا اقول ذلك ، وادركت اننى قد بلغت هدفى ،
اذ رايت صفاءه يخطفى والفرع والامل يرتسمان على وجهه ..
وقال يحدثنى من جديد ، وقد بدت فى صوته رنة اضطراب :

– كاتيا .. اتنا لا نمزح الآن .. ان مصيرنا يتقرر فى هذه
اللحظة .. اننى اطلب منك الا تجيبى بشيء وان تنصتى .. لماذا

تعذبينى هكذا ؟
وقاطعته قائلة فى برود ، وكاننى لست انا التى اتكلم وانما شيطان
يتحدث بسمى :

— لانتقل اكثر مما قلت .. انك على حق

فقال بصوت مرتعد :

— آه لو كنت تعرفين ما تفعلينه بذلك !

واجهشت بالبكاء ، فشعرت بوطاة الاسى تخف عن قلبى ، وكان
سرج يجلس فى صمت الى جوارى .. كنت مشفقة عليه ، خجلة
من نفسى ، حزينة لما فعلت . ولم اكن التفت اليه ، ولكن لا بد انه
كان ينظر الى فى تلك اللحظة اما بعين الريبة او التسوية . والتفت
كى اراه ، فوجدت عينيه الجميلتين الحنوتين تنظران الى فى امان
وكانهما تطلبان الصبح . وحينئذ امسكت بيده وانا اقول :

— اغفر لى .. لست ادرى انا نفسى ما كنت اقوله

فقال :

— نعم ولكننى اعرف ما كنت تقولين . ان ما قلت هو الحق

فقلت اسأله :

— ماذا ؟ ماذا تقول ؟

— اقول ان علينا ان نذهب الى بطرسبرج ، اذ لم يعد لدينا
ما نفعله هنا ..

قلت :

— سأفعل ما تريد ..

وأخذنى بين ذراعيه وقبلنى ، ثم قال :

— هل تفرين لى ؟ .. لقد كنت مخطئاً فى حقك ..



وثناء السهرة عزفت له الموسيقى لمدة طويلة ، وكان يروح فى
الغرفة جيئة وذهاباً وهو يهمس بشيء ، وكانت هذة عادة . وكثيراً
ما كنت أسأله عما يتمم به ، وحينئذ كان يكرر لى بالضبط ما كان

يهمس به ، وقد بدت عليه امارات تفكير عميق . وفي معظم الاحيان ،
كان يهمس بأبيات من الشعر أو عبارات لا مغزى لها .. ولكننى
كنت اتعرف على حالته النفسية من خلال هذه « السخافات »

وقلت اسأله مرة أخرى :

— بم تتمم اليوم ؟

وبعد ان فكر قليلا ، وقف فى مكانه ثم اجاب وهو يبتسم ببيتين

من شعر « ليرمونتوف » :

— هذا المجنون يشير العاصفة ..

متوهما ان العاصفة يمكن ان يسود فيها السلام ..

وفكرت اقول لنفسى : « حقا انه اكثر من رجل .. انه يرى كل

شئ ، فكيف لاجبه اذن ؟

ونهضت وامسكت بيده .. واخذت اذرع ارض الغرفة معه وانا

أزن خطاى على خطاه ..

وقال وهو يبتسم :

— حسنا ! ..

فقلت بدورى :

— حسنا ! ..

ولست أدرى أى حماس قد غمرنا .. اذ لم يكد ينقض اسبوعان ،

حتى كنا قد بلغنا مدينة بطرسبرج قبل الاعياد !!



الفصل السابع

في مدينة بطرسبرج

وجوه جديدة !

كان وصولنا الى مدينة بطرسبرج ، والاسبوع الذى قضيناه فى موسكو ، وزيارتنا لاسرته وأسرته ، والاستقرار فى الشقة الجديدة، ورؤية مدينة جديدة ووجوه جديدة .. كان كل ذلك بالنسبة لينا أشبه بالحلم . نعم ، كانت هذه كلها أشياء مرحة متنوعة .. وكان وجود سيرج وجبه يكسبنا طابعا دافئا مشرقا ، حتى بدت لى حياة الريف الهادئة كشيء بعيد مغمور فى العدم ..

ودهشت كثيرا حينما استقبلنى الجميع - أقارب وغرباء - برقة ولطف ، بدلا من هذه الكبرياء المتعالية وذلك البرود الذى كنت اتوقعه من الطبقة الراقية ، حتى خيل الى ان الجميع لا يفكرون الا فى . واكتشفت كذلك ان زوجى يعرف كثيرا من شخصيات الطبقة الراقية ، ولم يكن قد حدثنى عن ذلك أبدا . وكثيرا ما كنت اسمعه ينطق بأحكام قاسية على الكثيرين منهم .. وكان هذا يثير دهشتى وغضبى لاننى كنت أجدهم أناسا طيبين للغاية . ولم أكن أستطيع ان أفهم لماذا كان سيرج يعامل هؤلاء الناس فى جفاء ، ولماذا كان يتجنب مخالطة الكثيرين منهم ، رغم اننى كنت أرغب كثيرا فى مخالطتهم . وكان يخيل الى أن من الافضل أن يعرف المرء أناسا من الطبقة الراقية



كان سيرج قد قال لى قبل رحيلنا من الريف : « لنفكر قليلا ونرى كيف سنرتب الامور .. أننا هنا نعد من كبار الاثرياء ، وسنكون هناك بعيدين كل البعد عن الثراء . ولذا ينبغي ألا نمكث فى المدينة بعد عيد الفصح ، والا نخالط أبناء المجتمع الراقى كى لا تقع فى ورطة مالية .. ولن أرضى من أجلك ..

وكنت قد قاطعته قائلة : « ولماذا نخالط المجتمع الراقى ؟ ..
يكفى أن نذهب لمشاهدة الاوبرا والمسرحيات والاستماع الى الموسيقى
الرفيعة وزيارة الاهل . وقبل عيد الفصح ، نكون قد عدنا الى
الريف »

ولكننا ما ان وصلنا الى مدينة بطرسبرج ، حتى كان هذا
الكلام الجميل قد طواه النسيان .. لقد دفعت فجأة الى عالم
جديد سعيد ، وادارت كل تلك المسرات راسي . وظهرت أمام عيني
كثير من الاشياء التي لم تثر اهتمامي من قبل ، حتى انني انكرت
كل ماضى وقلبت كل خطى راسا على عقب ، بقفزة واحدة، ودون
أن أعي ذلك !

وكنت أفكر قائلة : « حقا لم يكن أى شيء قبل هذه الفترة إلا
نوعا من المزاح الذى لا معنى له .. أما الحياة الحقيقية فهي هذه
الحياة الجديدة ، وماذا اذن سيكون من أمر المستقبل ؟ »



لقد اختفت الهموم والاحزان التي كانت تلاحقنى في السريف ،
فجأة وفيما يشبه السحر .. ومن ناحية أخرى أصبح حبى
لزوجى اكثر هدوءا ، فضلا عن أن فكرة فتور حبه لى - عما كان
فى الماضى - لم تطرا لى على بال . لقد كان يفهم بسرعة كل افكارى،
ويقاسمنى كل مشاعرى ، ويحقق جميع رغباتى ..

ولست ادري اذا كان صفاؤه الذى لا يقوى أحد على تعكيره قد
اختفى هنا ، أم أن هذا الصفاء لم يعد يثير غضبى كما كان فى الماضى .
وكنت أشعر انه هنا يتمتع بوجودى الى جواره بالإضافة الى حبه
القديم الذى يكنه لى دائما . وكثيرا ما كان يحدث لى بعد احدى
الزيارات - أو بعد تعرفى بشخصية جديدة - أن ارتعد خوفا من
أن اكون قد ارتكبت حماقة ما أو قصرت فى واجبى كربة بيت ،
وحيثئذ كان يقول : « هيا يا ابنتى ! تشجعى .. لقد كنت رائعة
للقاية »

وبعد وصولنا الى بطرسبرج بمدة وجيزة ، كتب خطابا لوالدته ، وطلب منى ان اكتب لها شيئا فيه ، ولكنه لم يشأ أن يطلبنى على ما كتبه ، فادعيت أن لى الحق فى أن اقرا الخطاب ، وحينئذ تركنى افعل ذلك . وكان قد كتب الى والدته يقول : « انك لا تعرفين كاتبيا حقا ، وانا نفسى لم اعد اعرفها . فمن اين تأت لها هذه الثقة اللطيفة فى نفسها وفى المجتمع الراقى ، وهذا السلوك الرقيق المحبوب ؟ .. كل ذلك وهى لم تزل بسيطة وطيبة دائما . ان الكل مسحور بها ولا اكف عن الاعجاب بها بدورى ، وسيزداد حبى لها لهذا السبب »



ولقد اثار ذلك فى نفسى كثيرا من الراحة والسرور حتى خيل الى ان حبى له قد ازداد ايضا . وكان نجاحى عند جميع معارفنا شيئا لا اتوقعه . فكانوا يخبروننى بأننى قد أعجبت عمى بصفة خاصة ، وبأن احدى عماتى تكاد تجن بى من فرط الاعجاب . وكان يحدث لى ان يقول لى احدىهم ان مدينة بطرسبرج ليس فيها سيدة مثلى ، بينما تؤكد لى احدهن ان فى وسعى أن اصبح بسهولة أشهر سيدة فى المجتمع الراقى ..

وكانت هناك ابنة لاحدى خالات زوجى تحبى حبا جما ، وتفدق على اكثر انواع الاطراء ادارة لراسى ، وهى سيدة من أرقى سيدات المجتمع تدعى الاميرة « د » .. وحينما اقترحت على هذه السيدة لاول مرة أن اذهب معها الى حفل راقص - وكان هذا امام زوجى - التفت سريج نحوى وهو يبتسم ابتسامة مأكرة لا تكاد تلاحظ ، وسألنى عما اذا كنت أرغب فى الذهاب الى هناك ، فأومأت براسى علامة الايجاب ، وانا احس بالدم يندفع غزيرا الى وجهى ... وحينئذ عقب قائلا وهو يضحك فى سداجة :

- انها تبدو كمجرم يعترف برغبته ..!

فقلت وانا ابتسم بدورى :

– ألم تقل لى اننا لا يجب ان نخالط المجتمع الراقى لانك تكره ذلك ؟

فقال :

– اننا سنذهب الى هناك اذ كنت شديدة الرغبة فى ذلك

فقلت :

– كلا !.. من الافضل الا نذهب ..

ولكنه عاد يسأل قائلا :

– هل انت شديدة الرغبة فى ذلك ؟

ولم أجب بشيء ، فاستمر سيرج يقول :

– ان من اكثر الامور سوءا فى الحياة ان يتشبه المرء بالمجتمع الراقى .. ولكننا سنذهب الى هناك على أية حال .. نعم ، لا بد ان نذهب الى هناك ..

فقلت :

– اصارحك القول باننى اُرجب فى الذهاب الى هناك اكثر من اى شىء آخر اُرجب فيه فى هذا العالم



وذهبنا الى الحفل .. وهناك غمرنى سرور فاق كل حد. وبدا لى فى هذا الحفل اننى المركز الذى يدور فى فلكه كل شىء ، وان هذه القاعة الكبيرة ، التى تسطع فيها الانوار ، خاصة بى وحدى .. وان الموسيقى لا تعزف الا لى ، والجمهور لا يتجمع الا من حولى . كان الجميع ، ابتداء من خادمتى الخاصة حتى الراقصين والشيوخ، يريدون ان يقولوا لى انهم قد فقدوا صوابهم بسببى . وقالت ابنة خالة زوجى اننى لا اشبه النساء الاخريات فى اى شىء ، وانما اتمتع بشىء فريد فى نوعه ، يذكر المرء ببساطة الريف وسحره . والواقع ان نجاحى قد اثار غرورى حتى اننى صارحت زوجى برغبتى فى الذهاب مرة اخرى الى حفلتين او ثلاث حفلات خلال هذا الشتاء . واضفت اقول وانا اغالط ضميرى : « وذلك كى

أشبع من هذه الحفلات دفعة واحدة « . ووافق زوجى على ذلك ، وكان يأخذنى الى هناك اول الامر وهو مسرور بنجاحى ، وكان يتناسى او ينكر ما كان يدعى من قبل انه مبدأ بالنسبة اليه . ولكنه ما لبث أن بدأ يشعر بالتعب والضيق من هذه الحياة .. ولم يكن ذلك واضحا بما فيه الكفاية ، فكنت لا أدرك سر هذه النظرة اليقظة الجادة التى يوجهها الى أحيانا ..

كنت نشوى بهذا الحب والاعجاب اللذين اثرتهما فى نفوس عدد كبير من الغرباء .. وقد أسكرنى هذا العبير العبق ، عبير كل جديد ارتشفه هنا لأول مرة ..

وكان تأثير زوجى الروحى الذى يسيطر على ، ويكتم أنفاسى بعض الشيء ، قد تلاشى فجأة . وكان يحلو لى أن أبدو معه وسط هذا المجتمع ونحن على قدم المساواة .. بل وأن أشعر انهم يضعوننى فى مكانة أعلى من مكانته . ولم أستطع أن أدرك انه كان ينظر الى - وأنا اتمتع بهذه الحياة - بعين غير راضية . وكنت أحس بشعور من الرضا والكبرياء ينبثق فى نفسى حين ادخل الى حلبة الرقص وكل الأنظار متجهة نحوى ، وحينئذ اراه يتركنى ليندس بين الجمهور الذى يرتدى ثياب السهرة السوداء ، فيخيل الى انه يريد أن يعلن على الملأ حق الملكية الذى يتمتع به على شخصى ، لا انه يريد الهرب منى . فاذا وقع بصرى على وجهه المتجهم فى مؤخرة القاعة ، قلت فى نفسى : « فلينتظر حتى نعود الى المنزل ، وسوف يرى لمن كنت أحاول ان اكون لامعة جميلة .. حينئذ سوف يعرف من ذا الذى أحبه أكثر من أى مخلوق آخر يحيط بى هنا » . والواقع اننى لم اكن فرحة بنجاحى الا من أجله ، وايضا لانه كان يضحى من أجلى . ولكن كان هناك شىء يمكن أن يعرضنى للخطر ، وهو ان أحد الذين كانوا يقابلونى فى هذا المجتمع كان مندفعاً نحوى ، الامر الذى كان يثير غيرة زوجى . وكان سيرج يشق فى كل الثقة، ويبدو هادئاً غير مكترث . أما بالنسبة لهؤلاء الشبان ، فقد كانوا جميعاً لا قيمة لهم فى نظرى بالمقارنة الى

زوجى ، حتى ان هذا الخطر - وهو الخطر الوحيد الذى كان يبدو لى ان من الممكن ان اواجهه فى حياة المجتمع الراقى - كان لا يخيفنى على الاطلاق ..

وعلى الرغم من ذلك ، كنت احس بنوع من السرور والغبطة بسبب هذا الاهتمام الذى كان يبديه نحوى كثير من الناس .. وذات مرة قلت لزوجى بعد العودة من احدى الحفلات الراقصة: « لقد لاحظت انك كنت تتحدث بحماس مع السيدة «ن» .. »

قلت ذلك وانا اهدده باصبعى ، وكانت هذه السيدة من اكثر سيدات المجتمع الراقى فى مدينة بطرسبرج شهرة ، وكان زوجى قد تحدث معها طويلا بالفعل فى تلك الليلة . والواقع اننى كنت اريد بذلك اثارة غيظه ، فقد كان فى هذه اللحظة صامتا ومتضايقا بعض الشيء ..

واجابنى قائلا - وهو يقطب حاجبيه - كما لو كان يشعر بالمراسماتى :

- لماذا تقولين لى مثل هذه الاشياء ؟ .. ان مثل هذا الكلام لا يليق بك وانما بالنساء الاخريات .. دعى هذا الحديث يا كاتيا لانه يمكن ان يفسد الوثام الجميل الذى يسود حياتنا .. ولا زلت اأمل ان يعود الوفاق بيننا ..

واخذ لحظة الى الصمت ، ثم اضاف يقول :

- هل يمكن ان يعود هذا الوفاق يا كاتيا ؟

فقلت وانا مقتنعه تماما بما اقول :

- ان هذا الوفاق لم يفسد ، ولن يفسد ابدا ..

فعاد يقول :

- ليسمع الله منك ذلك .. ولكن .. ان الوقت كى نعود الى

الريف

كانت هذه هى الفرصة الوحيدة التى حدثنى فيها على هذا النحو وكان يبدو لى ان الامور تسير دائما على خير ما يرام ، وكنت من

ناحيتى مرحلة ومسروقة للغاية !

و حينما كنت أرى الضيق باديا على وجهه ، كنت أواسى نفسى بأن أقول اننى قد تضايقت من أجله مدة طويلة فى الريف . و اذا حدث وطرا بعض التغيير على علاقتنا ، كنت أطمئن نفسى بأن سحر علاقتنا سيعود كاملا حين نصبح مرة أخرى بمفردنا - خلال الصيف - فى منزلنا بنيكولسكى ..

وهكذا انقضى الشتاء دون ان اشعر بمرور الوقت ، وبقينا فى مدينة بطرسبرج برغم اننا كنا نعتزم الاسراع بالعودة للريف ..



وفى يوم الاحد التالى لعيد الفصح ، كنا نستعد للرحيل بعد ان انتهى زوجى من شراء كل الهدايا والحاجات اللازمة لحياتنا فى الريف . وكانت الحقايب معدة .. واصبح زوجى مرة أخرى فى أقصى حالات مرجه وسروره ..

وفى هذه اللحظة ، دخلت علينا ابنة خالة زوجى فجأة ، وطلبت منا ان نمد اقامتنا حتى يوم السبت لنتمكن من حضور حفل الكونتيسة «ى» . واخبرتني بان هذه الكونتيسة سبق ان وجهت الى الدعوة عدة مرات ، وان الامير «م» الموجود حاليا فى بطرسبرج قد اظهر أثناء الحفلة الراقصة الاخيرة رغبة كبيرة فى التعرف الى ، وانه سيحضر الى حفل الكونتيسة خصيصا من أجل ذلك ، وانه يقول فى كل مكان اننى اجمل سيدة فى روسيا ، وان كل اهل المدينة يجب ان يذهبوا الى هذا الحفل .. وباختصار ، فانه من غير اللائق الا اذهب الى هذا الحفل !

كان زوجى يقف فى الناحية الاخرى من غرفة الجلوس ، وكان يتحدث مع شخص لا اعرفه .. واستمرت ابنة الخالة تقول لى :

- هل ستحضرين اذا يا كاتيا ؟

فقلت فى تردد وانا انظر ناحية زوجى :

- لقد كنا نريد ان نعود الى الريف بعد غد ..

والتقت عيناى بعينى زوجى ، فالتفت الى فى حركة عنيفة .
وقالت ابنة الخالة :

— سأقنعه بالبقاء ، وسوف نذهب يوم السبت الى الحفل لندير
رءوس الحاضرين .. أليس كذلك ؟

فقلت وقد بدأت استسلم :

— ان هذا خلىق بأن ىربك كل مشروعاتنا ، خاصة واننا انتهينا
من اعداد متاعنا ..

وحينئذ قال زوجى من مكانه ، بلهجة غاضبة حاسمة لم اسمعها
منه أبدا من قبل :

— من الافضل ان تذهب مساء اليوم لتقدم تحيتها واعتذارها
للأمير !

وصاحت ابنة الخالة تقول فى سخرية :

— ها هو ذا يغار الآن .. انها اول مرة اراه فيها هكذا . اننى
لا احثها على ذلك من اجل الامير فحسب يا سيرج ميخايلوفيتش ،
انما من اجلنا جميعا .. فهذا هو رأى الكونتيسة « سى » التى
نبلغكما بدورها رجاءها فى ان تحضرا الحفل ..

فاختتم زوجى حديثه قائلا فى برود :

— ان الامر يتعلق بزواجى ..

غادر سيرج الغرفة ، وهو مضطرب اكثر من المعتاد ، وجعلنى
هذا اتالم ولا أعطى ردا لابنة الخالة . وحينما رحلت ، لحقت به
فوجدته يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ولم ىرنى او ىسمعنى وأنا
ادخل على اطراف أصابعى

وقلت فى نفسى وأنا أنظر اليه : « لا شك انه يتمثل الآن بيت
نيكولسكى العزيز ، ويتخيل قبهوته التى يتناولها كل صباح فى
غرفة الجلوس الباهرة الضوء ، وحقوله وفلاحيه ، وكذا طعام
عشائه والسهر بالليل »

وصممت فى نفسى على أن أترك كل الحفلات الراقصة ، وجميع

الامراء الموجودين في الكون ، كى ارى من جديد مرحه ومداعباته اللطيفة . ورجبت في ان اخبره باننى لن اذهب الى هذا الحفل ، وانه لم تعد لدى اية رغبة في الذهاب الى هناك . وفي هذه اللحظة ، التفت فجأة الى الورا . . فلما وقع بصره على قطب جبينه ، وتغير تعبير وجهه الحالم الجميل تماما ، وحل محله تعبير جديد ينم عن حكمة وفهم لنفسي ، وهدوء يمتزج بنوع من الحماية . ولم يكن يريد ان يكشف عن طبيعته الانسانية الضعيفة ، وكأنه يريد ان يبقى في نظرى نصف اله . .

التفت الى زوجى ، وقال في هدوء وعدم اكتراث :

— ماذا بك يا صديقتى ؟ . .

ولم اجب . . فقد شعرت بالفضب لانه يخفى مافى دخيلة نفسه عنى ، ولا يريد ان يبقى في عيني على طبيعته التى احبها . . وعاد يسألنى قائلا :

— هل تريد ان تذهبى اذن الى هذا الحفل ؟

فقلت :

— لقد كان لدى رغبة في ذلك ، ولكن يبدو ان الامر لا يروق لك

وصمت لحظة ثم اضفت اقول :

— فضلا عن اننا قد حزمنا كل متاعنا . .

فقال بلهجة باردة لم اسمعها منه قط من قبل :

— اننى لن ارحل قبل يوم الثلاثاء . . وسامر بفتح الحقائق . .

وبعد ذلك لن نرحل الا حين تشائين ، ويمكنك ان تفضلى بالذهاب

الى الحفل ، اما انا فلن ارحل . .

واخذ يسير في الغرفة بخطى مضطربة . . ودون ان ينظر

الى ، وكانت هذه عادته حين يتعرض لازمة نفسية . .

وقلت له وانا اعترض طريقه ، متابعة اياه بعيني :

— لست افهم حقا . . لماذا تحدثنى بهذه اللهجة الفريبة ؟ اننى

على استعداد تام لان اضحى من اجلك بهذه المتعة ، ولكن هانتذا

تلح على في الذهاب الى الحفل بسخرية لم اعهداها فيك من قبل !
فقال وهو يضغط على كلماته :

- حسنا ! انك تضحين ، وانا اضحى ايضا ، ولا شيء افضل من
ذلك ! انه سباق للتضحية .. ويخيل لى ان هذا مايمكن ان نسميه
سعادة الاسرة !

كانت تلك هي اول مرة اسمع فيها الكلمات تخرج من فمه بمثل
هذه القسوة والسخرية .. ولم اثار لسخريته ، او اذعر من
قسوته ، بل على العكس اثارت قسوته غضبى ، فاردت ان ابادله
القسوة بمثلها .. اهذا زوجى الذى كان على الدوام عدوا لدودا
لكل حديث جاف في علاقتنا ، والذى كان دائما صريحا معى ؟ ولماذا
يحدثنى بمثل هذه اللهجة ؟ الاننى اردت ان اضحى من اجله
بسرورى الذى لا اتصور سرورا اخر يفوقه ؟ الاننى ادرت مبلغ
حبنى له في نفس الوقت الذى كانت تراودنى فيه فكرة الذهاب الى
الحفل ؟ لقد كان يتهرب من البساطة والصراحة في الوقت الذى
كنت انشدهما ! ..

قلت له وانا اتنهد :

- لقد تفيرت كثيرا .. ماذنبى في نظرك ؟ انها ليست هذه
الحفلة ، وانما خطأ ما قديم يملأ قلبك بالثورة على .. لماذا
لا تصارحنى بكل مايعتمل في قلبك ؟ لقد كنت فيما مضى لا تخشى
الصراحة مثلما تخشاها الان .. تكلم بوضوح .. ماذا تحمل في
نفسك ضدى ؟

وكنت وانا اقول ذلك أستجمع ذكرياتى ، وانا اشعر بامتنان
دفين في نفسى ، لانه لم يكن له الحق في ان يوجه الى اى لوم بالنسبة
لهذا الشتاء مهما كان ذلك الذى سيقوله

وتقدمت حتى منتصف الغرفة كى يضطر الى المرور من جوارى .
ونظرت اليه وانا افكر قائلة : « لاشك انه سيقترب منى ويقبلنى ،
ثم ينتهى كل شيء »

جالت هذه الفكرة بخاطري .. وكان مما يحز في نفسى اننى لم
استطع ان ارهن له على خطئه . ولكنه توقف عن المسير عند طرف
الغرفة ، وقال وهو يرمقنى بنظره :
- الازلت دائما لاتفهمين ؟

فقلت :

- كلا ..

فقال :

- ومع ذلك ، فكيف اقول لك هذا ؟ .. اننى احس لأول مرة
بإشاعة ما اشعر به ، ولكننى لا أستطيع ان اتجنب ذلك ..
وقطع كلامه .. ويبدو ان الفزع قد أصابه من جراء لهجته
المجردة من الذوق . وقلت أسأله ودموع الفيض تكاد تظفر من
عينى :

- ماذا تريد ان تقول ؟

فقال على الفور :

- اننى احس بالإشاعة والاشمئزاز .. لانك ، بعد ان يجردك
الامير جميلة ، قد ترغبين في الجرى امامه وتنسين نفسك وكرامتك
كامرأة . وانت لاتريدين ان تفهمى ما يحس به زوجك ، لانك لست
في مكانه ، ولانك لا تشعرين بكرامة نفسك .. بل هناك ما هو أكثر
من ذلك بكثير ، فانت تصرحين لزوجك بانك تريدين ان تضحى من
أجله بنفسك .. وكأنك تقولين له : « ان اكبر سعادة بالنسبة الى
هى ان أظفر باعجاب صاحب السمو ، ولكننى اضحى بذلك من
أجلك »

كان كلما تكلم تزداد نبرات صوته عنفا وحماسا ، حتى أصبح
صوته يدوى بسخرية لاذعة وقسوة عنيفة . ولم اكن قد رأيت من
قبل في هذه الحال ، بل ولم اكن أنتظر قط أن أراه هكذا .. فقلى
الدم في عروقى واحسست بالخوف . ولكننى في الوقت نفسه
شعرت بأن كبريائى قد جرحت واهينت .. وبرغبة في الانتقام
منه ، قلت :

– تكلم .. لقد كنت انتظر هذا الانفجار منذ وقت طويل ..
واستمر في حديثه قائلا :

– لست أدري ماذا كنت تنتظرين .. وانا نفسى كنت اتوقع حدوث ما هو أسوأ من ذلك . اننى أراك وانت تنفسمين كل يوم في هذا الوحل والفراغ ، وهذا المجتمع السخيف والبذخ ، وكنت اتوقع .. كنت اتوقع اليوم ما يملأ نفسى بالخجل ويشبعنى بالأم لم اعرف مثله قط من قبل .. خجل من نفسى حين اخذت صديقتك تفتش في قلبى بيديها الملطختين بالوحل وتحدث عن غيرتى .. غيرتى ممن ؟ من رجل لا يعرفه انا ولا تعرفينه انت ؟ وانت .. انك لاتريدين أن تفهمى ، وكأنك قد صممت على ذلك .. بمن تريدين ان تضحى من أجلى ؟ يا الهى العظيم ! . الخجل لك .. الخجل لانحطاط نفسك !

واخذ يكرر قائلا : « تضحين من أجلى ! تضحين من أجلى .. ! » وفكرت في نفسى قائلة : « آه ! هذه اذن سلطة الزوج ! .. انه يذل ويهين زوجته التى ترتكب اى ذنب فى هذه الدنيا .. هذه حقوق الزوج .. ولكننى لن أخضع لهذا ابدا »
وقلت له بصوت مرتفع ، وانا أحس بفتحتى انفى تزدادان اتساعا وبالدماء تهرب من وجهى :

– كلا .. اننى لا أضحى بشيء من أجلك . وسوف اذهب يوم السبت الى الحفل .. نعم ، سأذهب الى هناك بكل تأكيد ..
فصاح يقول فى غضب لم يعد يستطيع ان يكتبه :
– ليمنحك الله متعة كبيرة ! .. ولكن كل شيء قد انتهى بيننا .. وأرجو على الاقل الا تعذيبننى طويلا .. لقد كنت مجنوننا ! .

كانت شفتاه ترتعدان ، وكان يبذل مجهودا كبيرا لكى يسيطر على اعصابه ، ولكيلا يندفع اكثر من ذلك فى اقواله . وكنت فى هذه اللحظة أخاف منه واكرهه ، ووددت لو أقول له بدورى كثيرا من الاشياء ، وانتقم لنفسى من اهاناته ، ولكننى كنت أعرف اننى

إذا فتحت فمى لن اقوى على ايلاف دموى فتضيع كرامتى !..
وغادرت الغرفة فى سكون .. ولكننى ماكدت أبتعد بضع خطوات
حتى استولى على ذعر مفاجيء لما حدث .. استبشعت ان تتحطم
هذه الرابطة التى تتوقف عليها سعادتى ، وفكرت فى ان أعود
أدراجى ، ولكن أتراه قد هدا بما يكفى لان أمد له يدى وأنظر اليه ؟
وهل يدرك مقدار كرمى معه ؟ وماذا يحدث لو ظن أننى أخفى شيئاً
وراء الى الصريح لما حدث ؟ ألم يصفح عنى بهدوء أقرب الى
الكبرياء ؟ ولماذا أهاننى الى هذه الدرجة ، وهو الذى قد أحببته
كل الحب ؟

ولم أذهب اليه .. وانما ذهبت الى غرفتى ، وبقيت فيها فترة
طويلة أبكى وأتذكر فى رعب كل كلمة من هذا الحديث الاخير ،
واضع مكانها فى ذهنى كلمة أخرى او اضيف اليها كلمة أفضل ..
وفجأة ، تذكرت ماحدث بيننا فى فزع ينطوى على احساسى بالاهانة



وفى المساء ، حينما التقيت بزوجى فى حضور « س » وأنا أعد
الشاي ، أدركت ان هوة قد انفتحت بيننا بسبب ماحدث .. ولما
سألنى « س » متى نساfer ، لم أستطع الرد عليه ، وأجابته زوجى
قائلاً :

– يوم الثلاثاء .. اننا سنذهب الى حفل الكونتيسة « ر »

ثم التفت نحوى وقال :

– انك ستذهبين الى هذا الحفل بغير شك ..

ونظرت الى زوجى فى خجل ، وقد ذعرت للهجة صوته التى كانت
تبدو غريبة بعض الشيء ، فوجدت عينيه تنظران الى فى مزيج من
المكر والسخرية ..

قلت :

– نعم ..

وحينما أصبحنا بمفردنا من جديد فى المساء ، اقترب زوجى منى

ومد الى يده وهو يقول :

— أرجو أن تنسى ماقلت لك ..

وأمسكت بيده .. ومرت على وجهي ابتسامة سريعة مرتعدة ،
وكادت الدموع تنهمر من عيني .. ولكنه أعاد يده كما لو كان
يخشى حدوث مشهد عاطفى بيننا ، وجلس فى مقعد كبير يبعد عنى
بمسافة كافية ..

وقلت فى نفسى : « اتراه لايزال يعتقد أن الحق فى جانبه ؟ »
وفجأة ، قال يخاطبنى :

— يجب أن نكتب لوالدتى لنخبرها بأننا قد أجلنا سفرنا ، والا
تسرب القلق الى نفسها ..
فقلت أسأله :

— ومتى تعتزم السفر ؟
فقال :

— يوم الثلاثاء .. بعد الحفل
فقلت وأنا أنظر الى عينيه :

— اتعشم الا يكون هذا التأجيل بسببى ؟

ولكنه اكتفى بأن نظر الى ولم يقل شيئا .. ثم بدا وكان قوة
سحرية تجذب عينيه بعيدا عنى .. وخيل الى أن وجهه قد شاح
فجأة وأصبح كريها ..

وذهبنا الى الحفل ، وكانت علاقتنا قد اكتسبت مرة اخرى
طابعا وديا ظاهريا ، ولكنها كانت فى الواقع علاقة تختلف تماما عما
كانت عليه فى الماضى ..

وفى الحفل ، اقترب منى الامير بينما كنت جالسة وسط جمع
من النساء ، فاضطرت للوقوف لاتحدث معه .. ولما فعلت ، أخذت
عينى تبحثان عن زوجى بطريقة لا ارادية ، فرايته ينظر الى من
الطرف الاخر من القاعة ثم يشيح بوجهه !

وفجأة ، استولى على خجل والم كبيران جعلانى أشعر باضطراب شديد ، حتى تصاعدت الحمرة الى وجهى لنظرات الامير .. ولكننى اضطررت الى البقاء فى مكانى ، والانصات الى مايقوله وهو يفحصنى من قمة رأسى الى أخمص قدمى . ولم يكن حديثا طويلا . ولم يكن هناك مكان خال حتى يستطيع الجلوس الى جوارى ، ولا بد انه قد أحس باننى لا اشعر بارتياح للحديث معه . وكان حديثنا عن آخر حفل راقص ، وعن المكان الذى أمضى فيه فصل الصيف ، وأشياء اخرى ..

وتركنى الامير وهو يبدى رغبته فى التعرف بزوجى .. ورايتهما بعد ذلك بقفان معا ويتحدثان فى الطرف الآخر من القاعة ، ويبدو ان الامير كان يخبره بشيء عنى لاننى رأيتهم يتسم اثناء الحديث وينظر ناحيتى ، وحينئذ احمر وجه زوجى ، فحيا الامير فى ادى جم وانصرف .. واحمر وجهى أيضا ، وخجلت من الفكرة التى كونها الامير عنى وعن زوجى بصفة خاصة . ويبدو ان الجميع قد لاحظوا حيرتى وخجلتى اثناء حديثى مع الامير ، وكذلك تصرفه الغريب . وكنت أقول فى نفسى : « يعلم الله ماسيدور فى خلداهم .. ترى هل يعرفون أمر المناقشة الحامية التى حدثت بينى وبين زوجى ؟ »



وبعد انتهاء الحفل ، صحبتنى ابنة خالة زوجى الى المنزل ، وتحدثنا معا فى الطريق .. ولم أستطع ان أمنع نفسى من ان أقول لها كل الذى حدث بيننا بمناسبة هذا الحفل ، فطمأنتنى وأخبرتني بأن ما حدث من قبيل تلك المشاجرات الكثيرة التى لامعنى لها ، والتى لاتخلف اى اثر فى العلاقة بين زوجين متحابين .. وشرحت لى شخصية زوجى كما تفهمها ، وقالت انها تجده انسانا متكبرا غير اجتماعى . فوافقتها على ذلك ، وانا أحس باننى قد أصبحت أكثر فهما لشخصيته !

وحيثما أصبحت بعد ذلك وجهها لوجه مع زوجى ، شعرت

بأن هذا الحكم الذي أصدرته عليه جرم حقيقي ثقيل الوطأة على
نفسى ، كما شعرت بأن الهوة بيننا أخذت تزداد اتساعا وعمقا ..!
وتغيرت حياتنا منذ ذلك اليوم ، وكذلك علاقتنا المتبادلة ، تغيرا
تاماً .. فلم يعد انفرادنا معا يبدو لنا جميلاً كما كان من قبل ..
وكانت هناك موضوعات نتجنب الخوض فيها ، وكان من الأسهل -
بالنسبة إلينا - أن نتبادل الحديث في وجود شخص غريب ، في
حين أننا نجد صعوبة في ذلك حين نكون وجها لوجه . وحينما كانت
ترد في الحديث أية إشارة عن حياة الريف أو حفل راقص ، كانت
نار تعمى بصيرتنا فنشعر بالاضطراب لمجرد أن ينظر كل منا إلى
الأخر ، وكان كل منا يفهم النقطة الحساسة التي تفرق بيننا
ويخشى الاقتراب منها ! ..

وكنت مقتنعة بأن زوجى رجل متكبر ومتهور ، وبأن من واجبى
أن أكون على حذر حتى لا أصطدم بمواطن الضعف فيه فأسبب
ثورته . ومن ناحيته كان مقتنعا كذلك بأننى لا أستطيع العيش
بعيدا عن حياة المجتمع الراقى ، وبأن حياة الريف لم تعد تروق
لنى ، وبأنه يجب أن يخضع لهذا الميل « الشرير » فى طبيعتى ..
ولذا كان كل منا يعمل من ناحيته على تجنب أى حديث مباشر
فى مثل هذه الموضوعات ، وكان كل منا يحكم على صاحبه حكما
خاطئا كل الخطأ !

وانتهى بنا الحال إلى أن أصبح كل منا لا ينظر إلى صاحبه على
أنه مثال الكمال فى هذا العالم ، بل على العكس كان كل منا يعقد
كثيرا من المقارنات ليقارن فيها - فيما بينه وبين نفسه - بين
شخصية وطابع صاحبه ، وشخصية وطابع الآخرين !



الفصل الثامن

العودة إلى الريف

حادثان مفاجئان

كنت متعبة جدا قبل رحيلنا .. وبدلا من أن نذهب الى الريف، اقمنا باحدى « الفيلات » ، ومن هناك سافر زوجى ليرى والدته . وكانت صحتى قد تحسنت وقت رحيله الى حد كان يمكننى من مرافقته ، ولكنه حثنى على البقاء وكانما كان يخشى أن تتأثر صحتى من جراء السفر . وفهمت أنه لم يكن يخشى على صحتى ، وانما كان فى الواقع مقتنعا بأنه لا يحسن بنا أن نكون فى الريف ، فلم الح عليه كثيرا وبقيت ..

والواقع اننى شعرت وأنا اعيش بدونه بالعزلة والفراغ .. ولكنه حينما عاد ، لاحظت ان وجوده لم يعد يضيف الى حياتى شيئا كما كان يحدث من قبل . وكانت تلك العلاقات السابقة التى لم أحدثه عنها تجثم على صدرى فتكتم انفاسى كالجرائم ، كما كانت تسيطر على كل افكارى ومشاعرى ، فى حين كانت كل افعاله وكلماته نموذجا للكمال ..

وكانت العلاقات بيننا قد تحولت - بصورة واضحة - الى علاقات اخرى تختلف تماما عن علاقات الحب المثالى التى كانت تربطنا من قبل .. ولم تكن من جانبنا نلاحظ هذا التحول الكلى . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت لكل منا مشاغل ومصالح لم نعد نحاول أن نشترك فيها ، بل ولم نعد نحس بأى اضطراب لان كلا منا أصبح يعيش فى عالم بعيد وغريب عن عالم الآخر ، فقد اعتدنا هذه الحال .. ولم تلبث الحيرة - بعد مضى عام - أن تلاشت من قلب كل منا وهو ينظر الى الآخر

وكانت فترات المرح عند سيرج ، وافعاله الصبيانية ، قد اختفت

كذلك .. وتلاشى أيضا هذا التسامح الذى لا يعبأ بشيء ، والذى كان يثيرنى فيما مضى ، كما تلاشت نظيرته العميقة التى كانت تشعرنى بالفرع والاضطراب فى آن واحد . ولم تعد نصلى معا أو نشارك بعضنا الحماس مثلما كنا نفعل مرة قبل ، واصبح كل منا لا يرى الآخر الا نادرا . وكان سيرج يخرج دائما لقضاء شؤونه ، ومن ناحيتى لم اعد اخاف أو اشكو من بقائى بمفردى ، وكنت اندفع على الدوام تجاه العلاقات الاجتماعية دون ان احس بحاجة الى ان اظهر فى المجتمع برفقة زوجى ! ..



ولم يحدث بيننا قط اى شجار أو جدل عنيف .. وكنت ابذل جهدى لارضائه ، وكان من ناحيته ينفذ كل رغباتى ، وكان يبدو ان كلامنا لا يزال يحب الاخر . وحينما كنا نبقى معا بمفردنا - ولم يكن هذا يحدث الا نادرا - كنت لا احس وأنا بجواره بأى سرور أو اضطراب .. وكأنتى اجلس بمفردى . ولم يكن بخاف على أن ذلك الذى يجلس معى ليس شخصا عاديا ، ولكنه رجل ممتاز للغاية .. وكنت مقتنعة بأننى اعرف مقدما كل ما سيقوله أو يفعل ، وحينما كان يفكر أو يتصرف خلافا لما اتوقع ، كنت ارى بكل بساطة انه اخطأ .. ولكننى لم اكن انتظر اى شيء من ناحيته . وقصارى القول كان زوجى ، ولا شيء أكثر من ذلك .. وكان يبدو لى ان الامور هى هكذا .. وينبغى ان تكون هكذا ، وانه لم توجد ولا يمكن ان توجد بيننا علاقات أخرى ! ..

وحينما كان يتغيب ، كنت اشعر مع ذلك بعزلة هائلة - خاصة فى الايام الاولى من زواجنا - وكنت احس وهو بعيد عنى بقيمته كسند لى ، فارتضى فى فرح على صدره حينما يعود ، ولكن لم تكن تنقضى ساعتان ، حتى كنت أنسى هذا السرور ولا أجسد شيئا أقوله ..

وفى اللحظات القصيرة التى كان ينبثق فيها بيننا حنان هادئ،

كان يخيلُ الى أن هذا ليس هو الحب الذي كان يملأ كل قلبي ،
وكنت أقرأ نفس الاحاسيس في عينيه . ولكننا لم نكن نريد أن
نتخطى هذا الحد ، الامر الذي كان يشعرني أحيانا بشيء من
الحزن .. وعلى اية حال ، لم يكن لدى الوقت الكافي للتفكير جديا
في شيء ، وكنت اجتهد في أن انسى احزاني بأن انغمس في تسلية
متنوعة !

وسرعان ما اصبحت حياة المجتمع تسيطر على كل ميولي ،
بل صارت عادة تستعبدني وتشغل من قلبي كل المكان الذي كان
مخصصا للحب . ولذا كنت اتجنب دائما ان ابقى بمفردي خوفا
من أن اتعمق في تأملاتي لحالتي . وكان وقتي كله مشغولا منذ
الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل . ولم يعد هذا الوقت
ملكا لي انصرف فيه كما اشاء ، حتى ولو أردت البقاء في البيت .
ولم اكن اجد في بقائي أى سرور او مضايقة .. وبدا لي ان الامور
لا بد ان تكون هكذا دائما !



وانقضت ثلاث سنوات على هذا المنوال ، ظلت خلالها علاقتنا
جامدة فاترة .. وكأننا لا يمكن ان تتحسن او تسوء اكثر من ذلك .
ووقع خلال هذه الاعوام الثلاثة حدثان مفاجئان في حياتنا العائلية،
ولكنهما لم يحدثا أى تغيير في حياتي .. !

أما هذان الحدثان ، فهما ميلاد اول طفل لي ووفاة تاتيانا
سيمينوفنا . وأثناء الايام الاولى ، غمر قلبي شعور عنيف بالامومة،
وخيل الى لفرط اندفاعه وتملكه لقلبي اننى على وشك أن ابدأ
حياة جديدة . ولكننى ما أن بدأت أخرج من جديد بعد شهرين ،
حتى أخذ هذا الشعور يقل شيئا فشيئا حتى تحول الى «عادة» !

وعلى العكس عاد زوجي ، منذ ولادة هذا الابن ، رجل الزمان
الضيق .. هذا الرجل اللطيف الذي يمكث دائما في البيت ، وكان
واضحا أنه قد حول كل حنانه ومرحه السابقين الى ولده . وحينما

كنت ادخل الى غرفة الطفل كى اقبله قبله المساء - وانا لا ازال
أرتدى ثوب السهرة - كنت كثيرا ما أجد زوجى جالسا فى الغرفة،
وكنت الاحظ نظرة اللوم القاسية التى يوجهها الى ، وحينئذ كان
يعتربنى خجل مفاجيء . وأحيانا ، كان عدم اهتمامى بالطفل
يسبب لى ذعرا ، وكثيرا ماكنت أسأل نفسى قائلة : « ترى ، هل
قدر لى ان أكون أسوا من بقية النساء ؟ » . ولكننى كنت أعود
فأجيب على نفسى بقولى : « ولكن .. ماذا أفعل لتفسىدى
ذلك ؟ »

وكنت أحب طفلى حقا ، غير اننى لم اكن أستطيع ان اظل جالسة
الى جواره اياما بأسرها ، فقد كان هذا خليقا بأن يشعرنى بالضيق
.. ولم اكن أرضى التصنع لنفسى بحال من الاحوال !

وسبب موت والدة سيرج له حزنا كبيرا .. وبرغم انى كنت
أشاركه أحزانه ، الا اننى كنت أفضل الآن ان أعيش فى راحة
بالريف . وكنا قد أمضينا الجانب الاكبر من هذه السنوات الثلاث
فى المدينة ، ولم اذهب خلالها الى الريف سوى مرة واحدة لمدة
شهرين . وحدث خلال السنة الثالثة ان سافرنا الى الخارج حيث
أمضينا الصيف فى مدينة اشتهرت بمياهها المعدنية ..



كنت حينئذ فى الحادية والعشرين من عمري .. وكان يخيل الى
ان ثروتنا فى أوج ازدهارها ، وان جميع من أعرفهم يحبوننى .
وكنت أمتع بصحة جيدة ، وأرتدى ثيابا من أحدث طراز فى مدينة
المياه المعدنية هذه ، كما كنت أعرف اننى جميلة .. وكان الجو
بديعا وكل شيء يبدو مرحا من حولى . ومع ذلك لم اكن أشعر
باننى سعيدة مثلما كنت وأنا فى بيت نيكولسكى ، وقت ان كانت
سعادتى كامنة فى نفسى لاننى أستحق السعادة . كانت حالتى
النفسية قد تعرضت لتيارات مختلفة ، ولكن هذا الصيف كان
طيبا . ولم يكن هناك ما أشتهيه ، او أمل فيه ، او أخشاه ..

لقد كانت حياتي في أوجها ، وكان ضميري مرتاحا ..

ولم أجد من بين الشبان اللامعين في مدينة المياه المعدنية هذه واحدا يمتاز في شيء عن الآخرين ، ولا حتى ذلك الأمير العجوز لك ... سفيرنا الذي كان يغازلني قليلا . كانوا اما حديثي السن اكثر من اللازم ، واما كبار السن للغاية . وكان هناك رجل انجليزى ذو شعر أشقر ، وآخر فرنسى ذو لحية .. وكنت لا أبدى أى اهتمام بأحد ، وفي الوقت نفسه لم أكن أستغنى عنهم .. فقد كانوا بوجوههم الخالية من التعبير جزءا لا يتجزأ من جو هذه الحياة الانيقة التي كنت منغمسة فيها !..

ومع ذلك ، لفت أحدهم انتباهي أكثر من الآخرين بالطريقة الجريئة التي عبر بها أمامي عن الحماس الذي أثيره في نفسه . وكان هذا هو الماركيز د ... الايطالى الجنسية . وكان لا يدع فرصة للالتقاء بى تفلت منه .. فكنا نمتطى الجياد ونذهب الى الملهى ، وكثيرا ما كان يقول لى اننى جميلة . وأحيانا كنت أراه من نافذتى وهو يحوم حول منزلنا ، وكثيرا ما احمرت وجنتاى خجلا منه ، فكنت دائما أشيح عنه بوجهي لانه كان يثبت في بصره على الدوام ، ولم يكن هذا يروقنى ..

كان صغير السن انيقا وسيما .. وكان يشبه زوجى في ابسامته وتعبير محياه ، ولكنه كان أجمل من زوجى بكثير . وكان هذا الشبه يدهشنى ، بيد انه كانت هناك فروق بينهما في الشخصية ، وفي الفم ، والنظرة والذقن المستطيلة . وكان مظهر زوجى يعبر عن طيبة وهدوء عجيبين .. وكان هذا يكسبه سحرا مثاليا ، بينما كان في هذا الشاب شيء ما بدائى وحيوانى !



وخطر ببالى أن هذا الشاب الايطالى يحبنى حبا جما ، ومن ناحيتى كنت أفكر فيه أحيانا بمزيج من الفخر والعطف . وحينما حاولت أن أهديء من انفعاله ، وأن أجعله يقف عند حد الثقة

والود المتبادل ، لفظ محاولتى واستمر يثير الاضطراب فى نفسى ،
برغم كراهيتى لذلك .. وظلت عواطفه تهدد بالانفجار فى اية
لحظة !

وكنت اخشى هذا الرجل على الرغم من اننى لم اعترف بذلك
لنفسى ، وكثيرا ماكنت افاجئ نفسى وانا افكر فيه . وكان زوجى
قد تعرف به ، ونشأت بينهما صداقة حميمة اكثر من صداقة
سرج لمعارفنا الاخرين ، الذين كان يفضل ان يبدو امامهم بمظهر
زوج بارد متعال !

واصبت بعرض فى نهاية موسم الاصطياف ، ولم اغادر المنزل
طيلة اسبوعين .. وحينما خرجت ليلا - لاول مرة - بعد مرضى
للاستماع الى شئ من الموسيقى ، علمت ان سيدة تدعى ليدى
« س » قد جاءت الى المصيف . وكان الناس ينتظرون قدومها
منذ مدة طويلة ، وكانت مشهورة بجمالها الرائع

والنف من حولى جمع من الناس استقبلونى بسرور .. ولكن
حشدا اكبر التف حول ليدى « س » التى كانت قد سبقتنى الى
المكان ببضع لحظات . وكان الناس من حولى لا يتحدثون الا عنها
وعن جمالها . وحينما رايتها وجدتها جذابة حقا ، ولكننى
احسست نحوها باشمئزاز بسبب تعاليها واعتدادها بنفسها .
وصارحت معارفى بهذا الشعور . وعلى اية حال ، كان مما جعلنى
اشعر بالضيق فى ذلك اليوم ان كل الناس كانوا مرجحين للغاية .
وفى اليوم التالى ، رتبت ليدى « س » .. رحلة الى القصر ،
ولكننى رفضت الاشتراك فيها . ولما خرج الجميع فى هذه الرحلة
وبقيت بمفردى ، بدا لى كل الرجال تافهين وسخفاء ، واحسست
برغبة فى البكاء وفى انهاء اقامتى بالمدينة والعودة الى روسيا
باسرع مايمكن !

كان شعور جارح قد تسرب الى نفسى ، ولكننى لم اكن اريد
الاعتراف بذلك .. وادعيت اننى اشعر بتوعك ، وامتنعت عن

الظهور في حلقات المجتمع الراقى . ولم اكن اخرج الا نادرا ،
وكنت حينما اُفعل اُخرج صباحا وبمفردى كى اشرب شيئا من
المياه المعدنية ، او اذهب لزيارة الضواحي في رفقة السيدة
« ل . م » وهى احدى معارفى الروسيات . ولم يكن زوجى معى
فى هذه الفترة .. اذ كان قد ذهب منذ عدة ايام الى مدينة
هايدلبرج حيث كان ينتظر انتهاء فترة استشفائى بالمياه المعدنية
كى يعود بعد ذلك الى روسيا ، ولم يكن يأتى لرؤيتى الا من حين
لآخر !



وذات يوم ، جرت ليدى «س» خلفها كل المجتمع الراقى الى
حفلى ، وانفقت مع السيدة « ل . م » على أن نذهب معا الى الحفلى ..
وسارت عربتنا التى تجرها الجياد فى الطريق الكثير المنحنيات بين
صفوف أشجار الكستناء العتيقة ، التى يستطيع المرء من خلالها
أن يلمح ضواحي مدينة بادن الساهرة .. كان ذلك عند غروب
الشمس ، وكنا نتحدث بجد ، الامر الذى لم يحدث بيننا من
قبل ..

لقد كنت أعرف السيدة « ل . م » منذ مدة طويلة .. ولكنها
بدت فى ذلك اليوم جميلة خفيفة الظل يستطيع المرء أن يحدثها فى
أى شىء .. ودار الحديث بيننا عن حياة الاسرة والاولاد ، وتلك
الحياة الفارغة التى نجياها فى المصيف ، وأبدينا رغبتنا فى أن نلتقى
فى ريف روسيا . وحينئذ غمر نفسى فجأة شعور بالحنين والحزن
لم أعرف له سببا . وأخيرا وصلنا الى قصر ليدى « س » ونحن
واقعتان تحت تأثير هذه المشاعر الجادة

كانت الظلال والرطوبة تسودان خلف جدران هذا القصر ،
وكانت اشعة الشمس - قبل الغروب - لا تزال تداعب قمم
الاطلال ، وكان وقع خطانا يتردد صداه تحت القباب . وظهرت
من خلال الباب المفتوح المناظر الطبيعية لمنطقة بادن ، فبدت كلوحة

داخل اطار .. ولكنها كانت مع ذلك مناظر باردة في نظرنا نحن
الروس

وجلسنا نستريح ، واخذنا نتأمل غروب الشمس في صمت .
وفجأة ، تناهت الى اسماعنا اصوات واضحة ، وخيل الى ان
شخصا يذكر اسم عائلتي . وارهمت السمع فالتقطت اذناى بعض
الكلمات بطريقة لا ارادية .. كانت اصوات اعرف صاحبها :
الماركيز د ... وصديقه الفرنسى الذى كنت اعرفه كذلك . كانا
يتحدثان عنى وعن ليدى س .. وكان الفرنسى يقارن بينى وبينها،
ويحلل جمال كل واحدة منا . ولم يذكر أى شيء يخدش المشاعر ،
ومع ذلك غلت الدماء في عروقى حينما سمعت كلماته . كان يشرح
بالتفصيل ما يراه جميلا ، سواء في أم في ليدى س . وبالنسبة
الى ، ذكر اننى سبق ان انجبت طفلا ، اما بالنسبة الى ليدى س
فهى لا تزال فى التاسعة عشرة من عمرها . وكان يرى ان صفائر
شعرى اكثر جمالا من صفائر الليدى س .. ولكن شعر الليدى
اكثر رقة . وذكر ايضا ان ليدى س من زهرات المجتمع المعروفات،
اما انا فمن هذا النوع من الاميرات الروسيات الصغيرات اللاتى
يحضرن كثيرا الى مدن المياه المعدنية جبا في الظهور . واختتم
الفرنسى حديثه قائلا عنى اننى حسنا فعلت بعدم دخولى في منافسة
مع الليدى ، والا لكنت لاقيت حتفى في مدينة بادن .. !

وهنا اجابه الايطالى قائلا :

— ان هذا خليق بأن يحزننى حقا ...

فقال له الفرنسى ، وهو يطلق ضحكة مرحة قاسية :

— الا اذا كانت ترغب في مواساة نفسها بصحبتك .. !

فقال الايطالى بلهجة جافة :

— سوف اتبعها اذا رحلت ..

فاجابه الفرنسى قائلا في سخرية :

- يالك من انسان سعيد الحظ ! اذن ، فانت تستطيع ان تقع في الحب !

فقال الايطالى فى دهشة :

- أستطيع ان احب !؟

وأخذ الى الصمت لحظة ، ثم اضاف يقول :

- يمكنك بالاحرى أن تقول عنى أنني لا أستطيع ان اعيش بغير حب .. ان افضل شىء فى الحياة هو ان يجعل المرء من حياته قصة . قصتى لى تتوقف أبدا عند منتصفها ، لاننى أزمع السير فيها حتى النهاية ، تماما كما سبق ان سرت فى قصصى الاخرى ..

وأخيرا قال الفرنسى :

- أتمنى لك حظا سعيدا يا صديقى ..

ولم أستطع ان أسمع أكثر من ذلك ، لانهما انتقلا خلف احد الجدران وأخذوا ينزلان الدرج . وبعد بضع دقائق ، وبينما كانا يخرجان من أحد الابواب الجانبية ، وقع بصرهما علينا فبدت على وجهيهما امارات دهشة شديدة . وصعدت الدماء الى وجهى حينما اقترب منى الماركيز « د » واستولى على الذعر حينما رأته يقدم لى ذراعه ونحن نخرج من القصر ، ولكننى لم أستطع ان أرفضها .. وأخذنا نسير خلف السيدة ل . م التى كانت تسير فى رفقة صديق الماركيز ..

واتجهنا نحو العربية .. وكنت أشعر بالاهانة بسبب ما ذكره عنى الفرنسى . ومع ذلك اعترفت بينى وبين نفسى انه لم يفعل أكثر من التعبير عما كنت أشعر به فى دخيلتى . أما كلمات الماركيز الفظلة ، فقد كانت تثير فى نفسى شعورا عنيفا بالثورة والخجل !

وكانت تعذبنى فكرة أننى استمعت الى هذه الكلمات ، ولكننى لم أعد أشعر فى الوقت نفسه بأى خوف منه .. بل على العكس كنت احس باشمزاز وهو يسير الى جوارى ، ولم اكن أنظر اليه او اجيب على حديثه ، وانما حاولت جهدى ان أسير مباشرة خلف.

صديقتى والفرنسى . وكان الماركيز يحدثنى عن جمال الطبيعة ، وعن سعادته بهذا اللقاء غير المنتظر ، وعن أشياء أخرى كثيرة لا أذكرها لاننى لم اكن انصت اليه ..

وكنت اثناء ذلك افكر فى زوجى وابنى ، وكانت تتنازع نفسى مشاعر متباينة هى مزيج من الخجل والاشفاق والرغبة فى أن اعود سريعا الى غرفتى المنعزلة فى فندق بادن ، حتى أستطيع أن افكر بحرية فيما كان يدور فى نفسى . ولكن صديقتى كانت تسيطر على مهل ، وكانت لا تزال لإماننا مسافة طويلة للوصول الى العربية ، وشعرت بأن الماركيز يبطن فى السر عن عمد محاولا أن يبقى معى بمفرده ، فأخذت أردد فى نفسى قائلة : « كلا .. هذا شيء لا يمكن أن يحدث » . وقررت أن أسرع الخطى ، ولكنه منعى من ذلك بأن اخذ يجذب ذراعى الى ذراعه بطريقة واضحة . وفى هذه اللحظة ، انعطفت صديقتى - مع منحني بالطريق - فأصبحت معه بمفردى ، وتملكنى خوف شديد ..

قلت له فى لهجة باردة :

- دعنى من فضلك ..

وأردت أن أجذب ذراعى ، فاشتبك طرف كفى المصنوع من الدانتيل بأحد أزرار سترته . وحينئذ انحنى نحوى وأخذ يخلى سبيل الكم ، فلمست أصابعه ذراعى العارية ..

لم اكن أحس بفزع أو سرور .. وأثار هذا الشعور قشعريرة باردة أحسست بها تجرى فى ظهري ، ونظرت اليه وأنا احاول أن أجعل نظرتى الباردة تعبر له عن مدى احتقارى ، ولكن يبدو أن هذه النظرة لم تعبر عن الاحتقار بقدر ماكانت تعبر عن الذعر والاضطراب

كانت عيناه المشتعلتان تحديقان فى وجهى .. وكانت يداه تمسكان بمعصمى ، وتمتمت شفثاه تقولان انه يحببنى ، واننى كل

شيء بالنسبة اليه . واخذت يدها تضغطان على بقوة اكثر ، فأحسست بالنار تسرى في عروقي . واطلمت عيناى ، وارتعد جسمى ، وجفت في حلقى الكلمات التى كنت أوشك أن انطق بها لاوقفه عند حده ..

وفجأة ، شعرت بقبلة تطبع على وجنتى .. فمكثت جامدة في مكانى انظر اليه وقد تثلج بدنى دون أن تكون لدى القوة كى أتكلم أو اقدم على تصرف . كان الفزع يشلنى ، فبقيت واقفة لا ادرى ماذا ينبغى أن افعل ..

حدث كل ذلك في لحظة واحدة .. ولكنها كانت لحظة رهيبه ! لقد رايتة فى هذه اللحظة - على حقيقته - واستطعت أن أحلله وجهه بنظرة واحدة ، وكذلك أن أستشف مايدور خلف جبينه القصير المنخفض . وأمعنت النظر فى أنفه المستقيم ذى الفتحتين المنتفختين ، وشاربه ، وذقنه التى حلقت بعناية ، وكذلك رقبته التى لوحتها أشعة الشمس . لقد كنت أحتقره وأخشاه .. انه كان شخصا غريبا عنى ، ومع ذلك كان حب هذا الرجل الذى اكرهه يدوى فى نفسى دويا عنيفا !

وتمتم يقول بصوته الذى يشبه صوت زوجى :

- اننى احبك ..

وفجأة .. قفزت الى ذاكرتى صورة زوجى وولدى ، كأنهما شخصان عزيزان كنت أعرفهما فيما مضى ، وانتهى كل شيء بالنسبة لهما .. وسمعت فجأة صوت صديقتى ينادينى من منعطف الطريق ، فعدت الى رباطة جأشى وانتزعت يدى وعدوت هاربة كى ألحق بها ..

وركبنا العربة ، وحينئذ نظرت اليه لأول مرة .. فخلع قبعته وقال لى وهو يتسم شيئا لا اذكره .. وبدا واضحا انه يشعر بعقدار ما كان يسببه لى من عذاب اليم فى هذه اللحظة . وبدت

لى الحياة بأسة للغاية ، والمستقبل مظلما للغاية ، والماضى رهيبا للغاية ! .. واخذت صديقتى تحدثنى ، ولكننى لم أفهم كلمة واحدة مما قالت ، وخيل الى أنها تتحدث معى بدافع من العطف فحسب .. ولكنها تخفى الاحتقار الذى تكنه لى فى قرارة نفسها . وكنت أستشف هذا الاحتقار وهذا العطف المهين فى كل كلمة من كلماتها ، وكل نظرة من نظراتها ..

وكانت قبلته لا تزال تحرق وجنتى .. ولم أستطع أن اتحمل عذاب التفكير فى زوجى وولدى . وفى غرفتى ، مكثت بمفردى وأنا أحاول أن أتأمل موقفى .. وبدأت لى فكرة بقائى وحدى أمرا يثير الفزع . ولم أتناول الشاى الذى قدم الى ، واتخذت بسرعة مذهلة قرارا بالسفر فى نفس الليلة بالقطار الى مدينة هايدلبرج كى ألق بزوجى ، دون أن أدرى لماذا .. !

ولما جلست مع خادمتى الخاصة فى مقصورة القطار الخالية ، أخذت أستنشق الهواء المنعش من النافذة المفتوحة ، فبدأت أتوب الى نفسى وأتمثل ماضى ومستقبلى على نحو أكثر وضوحا . وفجأة بدأت لى حياتى الزوجية - منذ يوم رحيلى الى بطرسبرج - بصورة ملأت ضميرى بالوخز والندم !



وتذكرت لأول مرة مشروعاتى وبداية حياتنا فى الريف ، وكذلك وجهت لنفسى هذه العبارة للمرة الأولى : « كم كانت مسرات سيرج عظيمة فى ذلك الحين ! » . واحسست بأننى مخطئة ومذنبية فى حق زوجى . وقلت أسأل نفسى : « ولكن لماذا لا يمنعنى هو ؟ ولماذا يخفى مشاعره أمامى ؟ ولم يتجنب أى محاولة لتصفية الموقف ؟ ثم ، لماذا يهيننى ؟ »

نعم .. لماذا لم يكن سيرج يستخدم سلطان حبه معى ؟ أم تراه لم يعد يحبنى ؟ .. وسواء كان سيرج مخطئا أم لا ، فإن قبلة هذا الشخص الغريب لاتزال مطبوعة على خدى ، وكنت لا أزال أشعر

بها . وكلما ازداد القطار اقترابا من هايدلبرج ، اتضح صورة زوجى أمام عيني ، وازددت رهبة من لقائه . وفكرت فى أن أقول له كل شىء .. نعم كل شىء ، وأن اغرق وجهى بدموع الندم ، ولابد أن يغفر لى سريج .. غير أنى لم أكن أعرف ماهو « كل شىء » هذا الذى سأخبره به .. ولم أكن واثقة كذلك أنه سوف يغفر لى ..

وحيثما دخلت أخيرا الى غرفة زوجى ، ووقع بصرى على وجهه الهادىء الذى لم تفلح الدهشة فى أن تزيل عنه هدوءه ، شعرت بأننى فى حالة لست أقوى معها على أن أقول شيئا أو اعترف له بشىء ، أو اطلب منه الصفح . وكان يجثم على صدرى احساس عميق بالندم والغضب
قال سريج :

— ما الذى دفعك الى الحضور ؟ لقد كنت انوى أن الحق بك غدا ! ..

وأخذ يفحصنى لحظة عن قرب ، وقد بدا مذمورا بعض الشىء ، ثم اضاف قائلا :

— ماذا حدث لك ؟ تكلمى .. !

فقلت وأنا اغالب دموعى :

— لا شىء .. لقد جئت اليك .. لنرحل غدا الى بيتنا فى روسيا

فظل سريج مدة طويلة ينظر الى بامعان .. وأخيرا قال :

— هيا .. قصى على ماحدث لك ..

واحمر وجهى على الرغم منى ، وخفضت عيني .. وخيل الى أن شعورا بالفضب والاهانة يلمع فى نظرتة . وكنت أخشى الفكرة التى يمكن أن تستحوذ على رأسه ، فأحسست بقدرة على كتمان مشاعرى لم أكن أعتقد أبدا أنها فى وسعى .. وأسرت أقول له :
— لم يحدث لى شىء .. وكل ما هنالك أن تملكنى الحزن والضيق

لقد كنت بمفردى ، فأمعنت التفكير فيك وفي حياتنا .. كم أخطأت
في حقك منذ وقت طويل ! .. ولكنك الان تستطيع ان تأخذنى
معك أينما تشاء !

ورحت اكرر قائلة :

– نعم ... لقد أخطأت في حقك منذ وقت طويل ..

وانهمرت الدموع من عيني من جديد ، فصحت قائلة :

– لنعد الى الريف ، ولنمكث هناك الى الابد ..

فقال فى برود :

– وفرى على نفسك مئونة هذه المواقف العاطفية يا صديقتى ..

ومن الخير ان نذهب الى الريف لان المال يعوزنا بعض الشيء .
ولكن لا تحلمى بالبقاء فى الريف الى الابد ، اذ اننى اعرف أنك
لا تستطيعين ان تمكثى فيه فترة طويلة !

ونفض لينادى الخادم ، وهو يختتم حديثه قائلاً :

– هيا اشربى قدحا من الشاي ..

وكنت أتخيل ما يفكر فيه بشأنى .. وشعرت بالاهانة من نظراته
التي كانت تنم عن الشك والخجل . كلا .. انه لا يريد ان يفهمنى
.. بل ولا يستطيع ان يفهمنى !

وتركته بعد ان أخبرته باننى ذاهبة لرؤية طفلى ، فقد كنت
اتوق لان اكون بمفردى حتى أستطيع ان ابكى .. ابكى .. ابكى ..



الفصل التاسع

صراع من أجل الحب

شتاء كئيب

دبت الحياة من جديد في بيت نيكولسكى ، بعد أن ظل باردا خاليا فترة طويلة .. ولكن لم يعد يعيش فيه كل من كانوا به من بل ، اذ ماتت حماتى وأصبحت انا وسيرج منذ ذلك الحين وجها وجه ..

والآن ، لم تعد الوحدة فقط هى كل ما كان يلزمننا ، بل انها أصبحت مصدر حرج لنا كذلك ..

وانقضى الشتاء بالنسبة الى على نحو سيئ ، خاصة وانى كنت مريضة ، ولم تتحسن صحتى الا بعد أن وضعت ابنى الثانى . واستمرت علاقتى بزوجى علاقة صداقة باردة ، مثلما كانت ايام حياتنا فى مدينة بطرسبيرج ، ولكن كل شىء فى قصرنا الريفى : الجدران ، وقطع الاثاث ، والارضيات ، كان يذكرنى بسيرج الذى فقدته !

كنا وكان بيننا هوة سحيقة لا سبيل الى عبورها .. وكان يبدو كمن يريد أن يعاقبنى عن خطيئة ارتكبتها .. وكنت أتمنى ان تتاح لى فرصة كى استسمحه واطلب منه الصفح والمغفرة ، ولكن كيف يطلب المرء الصفح دون أن يعرف الخطأ الذى ارتكبه ؟ انه كان يعاقبنى عن طريق عدم الاهتمام بأمرى ، فلم يعد يعطينى نفسه ، ولم يعد يفتح لى قلبه وروحه مثلما كان يفعل فى الماضى . وكان لا يخبر أحدا بما يدور فى قلبه .. وكانما صار انسانا بلا قلب !

وأحيانا كان يجول بخاطرى أنه يتظاهر بذلك كى يعذبنى .. أما شعوره القديم نحوى فلا يزال كما هو .. وكان يحدث أن اجتهد فى اثارته كى يكشف لى عن هذا الشعور القديم ، ولكنه

كان يتهرب دائما كلما حاولت التفاهم معه بصراحة !

وخيل الى انه يشك في اننى اخفى شيئا عنه ، وانه يخشى ان يظهر لى مشاعره .. وكان هذا امرا يبعث على السخرية منه . وكانت نظراته وسيماء وجهه تفصحان عن رغبته فى أن يقول : « اننى اعرف كل شىء ، وكل الذى تريدون قوله .. اننى اعرف جيدا انك تتحدثين بطريقة وتتصرفين بطريقة اخرى » وكنت اشعر بالاهانة فى البداية بسبب خوفه هذا من أن يكون صريحا .. ولم اعد أستطيع بدورى أن اقول اننى احبه ، أو اطلب منه أن يشاركنى الصلاة ، أو اناديه ليستمع الى الموسيقى التى اعزفها . وكان يشعرنى بأن قواعد معينة للسلوك تسود علاقتنا طبقا لاتفاق عرفى بيننا !

كان كل منا يعيش فى ناحية .. سيرج غارق فى أعماله ومشغولياته التى لم اعد اشعر بالحاجة أو الرغبة فى مشاركته فيها ، وأنا بفراغى الذى لم يعد يحزننى أو يجرح مشاعرى كما كان يحدث فى الماضى . أما الطفلان ، فكانا لا يزالان صغيرين ، ولم تستطع عاطفتنا المشتركة نحوهما أن تستعيد الروابط التى كانت تربط بين قلوبنا ..

وثناء ذلك حل الربيع فجأة .. وجاءت ماشا وسونيا لتمضية فصل الصيف فى الريف ، ولما كنا نقوم ببعض الاصلاحات فى بيت نيكولسكى ، فقد ذهبنا للاقامة فى بيت بوكروفسكى ، الذى كان على الدوام منزلنا القديم ، بشرفته الفسيحة وغرفة مائدته التى لا تغلق ، والبيانو الموضوع فى الصالة المضيئة ، وغرفتى القديمة ذات الستائر البيضاء ، واحلامى وأنا فتاة شابة .. تلك الاحلام التى يبدو اننى قد نسيتها ..

وكان بالغرفة سريران ، ينام فى احدهما نيكولاى الصغير الذى كنا نسميه « كوكوشا » تديلا ، وفى الآخر ولدى ايفان الصغير الذى كنا ندله « بغازيكا » . وكنت اذهب الى هذه الغرفة لبارك

كوكوشا ذا الوجنتين الكبيرتين ، وأتأمل فازيكا البدين الذى تطل ساقاه من اللفة . وكنت بعد أن أقبلهما اظل واقفة مدة طويلة وسط هذه الغرفة الهادئة .. وفجأة كانت كل ذكريات شبابه المنسية تطل على من أركانها الاربعة ومن خلف ستائرهما ، وتغنى لى أغنيات الطفولة القديمة .. !

ماذا أصبحت هذه الذكريات ؟ وماذا أصبحت تلك الاغنيات الجميلة ؟ لقد حدث ماكنت لا أجرؤ حتى على تخيله ، وأصبحت احلامي حقائق معقدة غامضة ، وحياتى صعبة ثقيلة الوطأة لاطعم لها ولا لذة فيها .. ومع ذلك ، بقيت جميع الاشياء من حولى كما كانت فى الماضى تماما .. اليست هذه نفس الحديقة التى ترى من خلال النافذة ، ونفس الشرفات والممرات والمقاعد ؟ اليس هذا نفس تغريد البليل الذى ينبعث من فوق الربوة عند مياه البركة ونفس الازهار التى لازالت مزهرة كما كانت فى الايام السابقة ؟ ومع ذلك ، كان كل شيء قد تغير فى نفسى تغيرا بشعا !

وكنت وماشا لا نزال نتحدث فى هدوء ، كما كنا نفعل من قبل ونحن جالسان فى غرفة الجلوس . وحينما كنت اتحدث عن سيرج كانت ماشا تقطب حاجبيها ، ويصفر لونها ، ولم تعد عينها تلمعان بالامل والسرور ، وانما تعبران عن حزن عميق ، ومؤاخاة لى وعطف على . وكنا لانحلم ونحن نتحدث عنه كما كنا نفعل فى الماضى وانما كنا نحكم الان عليه ، ولم نعد نعجب بسعادتنا أو نرغب فى ان نتحدث عنها ونعلنها على العالم بأسره .. بل كنا نتهامس كالمآمرات ، وكانت كل منا تسأل الاخرى عشرات من المرات : لماذا تغير كل شيء ؟ لماذا أصبح كل شيء حزينا هكذا ؟

وظل سيرج كما هو .. لم يظراً عليه شيء الا أن ازداد عمق الثنية التى تقسم جبينه ، وكذلك عدد الشعرات البيضاء على جانبيه رأسه ، وكان هناك غيم يغطى دائما نظرتة المنتبهة العميقة . ومن ناحيتى كنت لا ازال كما انا .. فقط لم يعد يوجد فى نفسى

حب أو رغبة ، كما لم أعد أشعر بالحاجة الى ارضاء نفسى . وبدأ
لى حماسى الدينى السالف ، وحبى القديم ، وحياتى العائلية
السابقة .. كل هذه وغيرها بدت لى اليوم أمورا بعيدة للغاية .
ولم أكن أفهم ماكان يبدو لى حينذاك مشرقا وجميلا ، ولا كيف
يجد الانسان السعادة فى العيش من اجل الآخرين .. ولماذا أعيش
من اجل الآخرين بينما لا أريد العيش من اجل نفسى ؟

وكنت قد أهملت الموسيقى تماما فى الوقت الذى ذهبت فيه الى
بطرسبرج .. ولكن منظر البيانو القديم اعاد الى الميل الى
الموسيقى ..



ومرضت ذات يوم ، فمكثت وحدى فى البيت ، وكانت سونيا
وماشا قد ذهبتا الى بيت نيكولسكى لرؤية الاصلاحات الجديدة .
فجلست امام البيانو لاشغل نفسى بالعزف فى انتظار عودتهما ..

وبدأت فى العزف ، ولم ألبث أن استغرقت فيه .. ولم يكن
هناك احد يسمع او يرى .. وكانت النوافذ التى تطل على الحديقة
مفتوحة ، والانغام الحزينة العميقة تدوى فى ارجاء الغرفة . ولما
فرغت من عزف الجزء الاول من المقطوعة ، نظرت بغير وعى منى
- وبحكم العادة - الى الركن الذى كان سيرج يجلس فيه لينصت
الى عزفى . ولكنه لم يكن هناك ، وكان المكان مشغولا بمقعد لم
يتغير وضعه منذ زمن طويل . ولمحت على حافة النافذة شجيرات
ورد ظهرت بوضوح فى أشعة الشمس الغاربة ، وكانت الرطوبة
تتسلل من خلال النوافذ المفتوحة ..

واتكأت على آلة البيان ، وغطيت وجهى بيدي ، واستغرقت فى
الاحلام . ويبدو اتنى قد بقيت هكذا مدة طويلة .. ا تذكر فى الم
ذلك الماضى الذى ولى بغير أمل فى العودة ، والحاضر الذى يبعث فى
نفسى الخجل . وأخيرا رفعت رأسى فى فرع ، وأخذت أعزف نفس
المقطوعة من جديد حتى لا أستغرق مرة أخرى فى التفكير . ومع

ذلك ، كنت أحدث نفسي قائلة : « يا الهى ! .. اغفر لى ان كنت
أذنبت ، وأعد الى نفسى كل ماكان يجمل روحى ، وعلمنى مايجب
على أن أفعله ، وكيف يجب أن أعيش »

وسمعت صوت عجلات عربة تسير فوق العشب أمام سنم
الشرفة ، ثم وقع أقدام مالوفة تصعد الدرج فى هدوء ، ولم تلبث
أن توقفت . ولم يوظف صوت هذه الاقدام التى أعرفها جيدا نفس
المشاعر التى كان يوظفها فى نفسى فيما مضى .. وحينما انتهيت
من العزف ، بدأت الاقدام سيرها من جديد ، ثم شعرت بيد
توضع فوق كتفى ..

قال سريج :

- يا للفكرة الطيبة التى جاءت بك الى هنا لتعزفى هذهالمقطوعة!
وأضاف يقول حينما لم يسمع اجابة :

- الا تتناولين الشاي ؟

وهززت راسى علامة النفى ، دون أن التفت الى الخلف حتى
لا يلاحظ أمارات الاضطراب التى كانت بادية على وجهى ..
واستطرد سريج يقول :

- انهما على وشك أن تحضرا .. لقد جن جنون الحصان
ففضلتا أن تعودا سيرا على الاقدام ..
فقلت :

- اننا سننتظرهما ..

وانتقلت الى الشرفة وأنا آمل أن يلحق بى هناك .. ولكنه
استفسر عن الطفلين ثم ذهب لرؤيتهما .. ولكن نبرات صوته
الطيب الحلو أزالت من نفسى فكرة أن كل شىء قد ضاع بغير رجعة
وقلت لنفسى : « ماذا يمكن أن أستهى أكثر من ذلك ؟ .. انهطيب
ووسيم ، وزوج مثالى ووالد ممتاز .. ولست أدرى أنا نفسى
ما الذى ينقصنى »

وجلست فى الشرفة على نفس المقعد الذى جلست فيه يوم

تفاهمنا المشهود على الزواج . وكان قرص الشمس قد أوشك أن يختفى وراء الافق ، والظلام قد بدأ يسود المكان .. وكانت الرياح قد خفت حدتها والازهار تنفت في الجو رائحة ذكية نفاذة .. وحاولت عبثا أن اهدىء نفسى .. وأخيرا نزل سيرج وقال وهو يجلس الى جوارى :

– يخيل الى أن الدنيا ستمطر ، وأن ماشا وسونيا ستفرقهما مياه المطر ..

فقلت :

– نعم ..

ثم ساد بيننا صمت طويل ..

وعلى الرغم من سكون الرياح ، لم تكف الفيوم عن الاقتراب من الارض بسرعة .. وفجأة سقطت قطرة مطر كبيرة على أرض الشرفة، وتلتها قطرة أخرى فوق حصي ممر الحديقة .. ولم يلبث المطر أن انهمر كالسيل ، وهو يحدث صوتا عميقا ثقيلًا .. وكانت أصوات البلابل والضفادع قد تلاشت ، فلم يعد يسمع غير هدير المطر .. وكنا نستطيع أن نميز في وضوح قطراته الكبيرة التي تتساقط في الهواء ، وكان هناك عصفور قد اختفى تحت غصن جفت أوراقه في مكان ما بالقرب من الشرفة ، وكان يفرد نغمتين لا تتغيران . ثم نهض سيرج من مكانه ، وبدا عليه أنه يريد أن يرحل فقلت أسأله وأنا احتجزه الى جوارى :

– الى أين أنت ذاهب ؟ .. ان الجو هنا جميل للغاية !

فقال :

– يجب أن أرسل مظلة وحذاءين برقبة الى سونيا وماشا

فقلت :

– ليس هذا ضروريا لان المطر سينقطع في الحال ..

ووافقني على ذلك .. وبقينا معا بالقرب من سور الشرفة الرطب ، وكنت متكئة بيدي على السور وأمد رأسي خارج الشرفة،

فبل رذاذ المطر المنعش شعري ورقبتى

وأخيرا ، كف المطر عن السقوط .. وعادت البلابل الى غنائها
من جديد وهى مختبئة خلف كتل الاوراق التى تلمع تحت ضوء
القمر . وانحنى سرج على سور الشرفة ، ثم قال وهو يتخلل
شعري بأصابعه :

- ما أجمل الحياة .. !

وأثرت هذه المداعبة البسيطة فى نفسى تأثيرا يشبه العتاب ،
حتى شعرت برغبة فى البكاء .. بينما استمر سرج فى حديثه
قائلا :

- ماذا يريد الرجل أكثر من ذلك ؟ .. اننى سعيد فى هذه
اللحظة ولا شىء ينقصنى ..

وقلت أفكر فى نفسى : « انك لم تقل لى ذلك حينما كان مثل
هذا الكلام يسبب لى السعادة .. ومهما كانت سعادتك كبيرة
كنت تقول لى حينئذ انك تريد المزيد . وهانذا الان تبدو هادئا
ومسرورا ، بينما نفسى مفعمة بندم قد لا يمكن ازالته ، وبدون
تريد أن تنهمر ! »

ولكننى اجبته قائلة :

- ان الحياة طيبة بالنسبة الى كذلك .. ولكننى حزينة لانها
طيبة نحوى .. اننى أحس بأن شيئا ما ينقصنى ، وأرغب دائما
فى شىء آخر . وعلى الرغم من ذلك ، فكل شىء هنا طيب وهادىء
للغاية ! فهل يمكن الا يمتزج فى نفسك اى حزن بهذه المتع التى
منحتها لك الطبيعة ؟ .. كان تندم مثلا على شىء مافى ماضيك
ورفع سسرج يده التى كان يضعها على رأسى ، ولاذ لحظة
بالصمت .. ولم يلبث أن قال وكأنه يستجمع ذكرياته :

- نعم .. لقد حدث لى ذلك أيضا فيما مضى وخاصة فى أيام
الربيع . وكنت أقضى لىالى بأكملها أحلم بالرغبات وأعدد الامال
.. ويا لجمال تلك اللىالى ! .. حينئذ كان كل شىء أمامى ، والان

أصبح كل شيء خلفي ، ولكنني الان مسرور بالواقع ..!
وقطع سيرج كلامه ، ثم أردف يقول بعد لحظة :
- والواقع الذي أعيش فيه هو الكمال بالنسبة لى ..
نطق سيرج بهذه العبارة الاخيرة في ثقة وعدم اكتراث ملا
نفسى بالالم ، وكنت مقتنعة بأنه صادق فيما يقول .. فقلت
أسأله :

- اذن فأنت لم تعد ترغب في أى شيء ؟
فأجابنى قائلاً وقد أدرك حقيقة شعورى :
- ليس هناك مستحيل !
ثم أضاف يقول وهو يضع يده من جديد على رأسى :
- انظرى كيف بللت رأسك .. انك تغارين من أوراق الشجر
والعشب الذى بلله المطر ، وتريدين أن تكونى العشب وأوراق
الشجر والمطر فى آن واحد .. اما أنا فأتمتع برؤية هذه الاشياء
فقط ..

فقلت له وأنا أحس بثقل تزداد وطأته على قلبى :
- الا تندم على شيء فى الماضى ؟
وأخذ الى الصمت مرة أخرى وأخذ يحلم ، وخيل الى أنه
يريد أن يتحدث بصراحة ، ولكنه قال أخيراً فى اقتضاب :
- كلا ..

فصحت أقول وأنا أثبت عيني فى وجهه :
- الا تندم على الماضى ؟
فقال :
- كلا! .. اننى لا أباركه ، ولكننى لست نادماً عليه ..!
قلت :

- الا تمنى اذن أن يعود الماضى ؟
فقال وهو يشيح بوجهه ناحية الحديقة :

— اننى لا أرغب فى ذلك مثلما لا أرغب فى ان ينبت لى جناحان ..
ان هذا ليس ممكنا ..!

— الا تريد ان تعيد بناء الماضى ؟ او توجه اللوم الى او الى نفسك؟
— كلا .. لقد سار كلّ شيء على خير ما يرام

فقلت وانا امسك بيده كى ارغمه على الالتفات نحوى :

— انصت الى !.. يجب ان تنصت الى .. لماذا لم تصارحنى بما
كنت تريده منى حتى أستطيع ان أعيش وفق هواك ؟ ولماذا منحتنى
حرية كنت اسىء استعمالها ؟ .. لماذا كففت عن تعليمى وتوجيهى

واستطردت اقول بصوت كان يزداد قوة ، ويعبر عن الغضب
البارد أكثر مما يعبر عن الحب الماضى :

— لو انك اردت ذلك .. اعنى لو انك وجهتنى توجيهها آخر لما
حدث أى شيء على الاطلاق ..

فقال وهو يلتفت نحوى فى دهشة :

— وما الذى حدث ؟ ان شيئاً لم يحدث ابداً ..!

ثم عاد يقول وهو يبتسم :

— ان كل شيء على ما يرام .. على ما يرام تماماً ..

وفكرت اقول فى نفسى والدموع تكاد تطفّر من عينى : « امن
الممكن انه لم يفهمنى ؟ او انه لم يشأ ان يفهمنى ؟ »

ولكننى قلت لله فجأة :

— بما اننى لم ارتكب اى ذنب فى حقك ، فلا يمكنك ان تعاقبنى

بعدم اكرائك وحتى باحتقارك .. اما ما حدث ، فهو اننى اراك
تنزع منى كل غال وعزيز دون اى خطأ من جانبى ..

فصاح يقول وكأنه لم يفهم ما قلت :

— ماذا تقولين يا صديقتى ؟

فقلت :

- دعنى انتهى اولا مما اريد ان اقول .. لقد نرعت منى كل
ثقتك وحبك ، وحتى احترامك ، لمجرد اننى كفت عن الاعتقاد بانك
لم تكن تجبنى بعد ما حدث بيننا .. آه ! يجب على الاقل ان
اصارحك ولو مرة واحدة بما يعذبني منذ مدة طويلة .. هل كنت
مذنبه لاننى لم اكن اعرف الحياة ولانك تركتني اكتشفها بمفردى ؟
وهل أنا الان مذنبه فى الوقت الذى تبتعد عنى دائما متظاهرا بانك
لا تفهمنى او تفهم ما اريد ، بينما قد فهمت أخيرا ما يلزم المرء فى
هذه الحياة ... والان ، وقد انقضى على نحو عام وانا اكافح كى
اعود اليك ، هل تريد ان تسير الامور بحيث لا توجه اللوم الى
نفسك ابدا بخصوص أى شىء ؟ هل تريد ان تلقى بى من جديد فى
هذا النزوع من الحياة الذى سيجر الشقاء على نفسى ونفسك !

فقال يسألنى فى فزع ودهشة :

- وما الذى يدفعك الى الظن باننى اريد ذلك ؟

قلت :

- ألم تقل لى بالامس اننى لا أجد الراحة هنا ، وأن علينا ان
نذهب من جديد الى بطرسبرج لتمضية فصل الشتاء ، وهى مدينة
اشعر الان بالبشع كلما فكرت فيها ؟

وأضفت أقول :

- لقد تجنبت الحديث معى بصراحة ، ولم تقل لى اية كلمة
صريحة جميلة مع انه كان يجدر بك ان تمد لى يد المساعدة ..
وبعد ذلك ، حينما اسقط ، سوف توجه الى اللوم على هذا
السقوط ! ...

فقال فى برود وقسوة :

- كفى .. كفى .. ان الذى تقولينه غاية فى السوء ، وهو
يكشف عن استعداد سيء نحوى ..

فتاطعتة قائلة :

— يبدو أنك تريد أن تقول اننى لا أحبك ! هيا قل ذلك ! ..
قله اذن !..

وبللت الدموع عيني ، فجلست على مقعد وغطيت وجهي بمنديلى
محاولة أن أمنع الدموع الغزيرة التى كانت على وشك أن تنهمر
على وجنتى ، وفكرت قائلة فى نفسى : « هكذا يفهمنى اذن ؟ .. لقد
ضاع كل شيء ، وانتهى حبنا السابق ! »

ولم يقترب منى مواسيا ، فقد كان مجروح الشعور مما قلت
له ، ولكنه لم يلبث أن قال بصوت هادئ جاف :

— لست أعرف كيف توجهين الى اللوم الا اذا كنت تعتقدين
اننى لم اعد أحبك كما كنت أحبك فى الماضى ..

فتمتعت أقول من تحت منديلى :

— كما كنت تحبنى فى الماضى ؟!

وبللت دموع المرارة منديلى ، ولكننى قلت أخيرا :

— اننا فى هذا .. كلانا والزمن ، نتقاسم الجرم بالتساوى ..

ان كل وقت يناسبه وجه للحب ..

فقال بعد لحظة من الصمت :

— اذا كنت تحبين أن أحدثك بصراحة ، فسأخبرك بالحقيقة
كلها . لقد قضيت ليلالى بأكملها لا يفمض لى جفن فى السنة التى
عرفتك فيها .. كنت أفكر فىك وابنى حبنى بنفسى .. ونما ذلك
الحب وترعرع فى قلبى . وفى مدينة بطرسبرج ، قضيت ليلالى
بشعة بأكملها وأنا أحاول أن أحطم هذا الحب الذى كان مصدر
عذابى . ولم أستطع تحطيمه ، ولكننى تمكنت على الاقل من تحطيم
ما كان يعذبنى فيه . وأخيرا هدات ، واستمر حبنى لك .. ولكنه
حب آخر ..

فقلت :

— هل تسمى هذا العذاب الاليم حبا ؟ لماذا اذنت لى بأن أعيش

فى المجتمع الراقى ما دمت تعتقد انه مجتمع فاسد ؟

– ولكن المذنب ليس المجتمع الراقى يا صديقتى ..

– ولماذا اذن لم تستعمل سلطتك على ؟ لماذا لم تمنعنى رغم انفى ؟ لماذا لم تقتلنى ؟ ان ذلك خير من ان افقد كل ما يكون سعادتى .. لقد كان هذا افضل بالنسبة لى ، ولم يكن هناك داع للخجل ..

وبكيت مرة اخرى وانا اغطى وجهى بمنديلى . وفى هذه اللحظة ، دخلت ماشا وسونيا الى الشرفة فى مرح وقد بلل المطر كل ثيابهما ، ولكنهما كانتا مرحتين للغاية .. وكفتا عن الضحك حين وقع بصرهما علينا ، وغادرتا الشرفة على الفور ..

ومكثنا صامتين بعد خروجهما فترة طويلة ، ولما استنزفت دموعى شعرت بالاسى يخف عن قلبى . ونظرت اليه فوجدته جالسا وقد اتكا براسه على يديه ، وبدا كما لو كان يريد ان يجيب على نظرتى بشيء ، ولكنه اكتفى بان تنهد فى الم ، واتكا براسه من جديد على يديه ..

واقتربت منه وابتعدت يديه .. وحينئذ التفت الى وقال وكأنه يبحث عن الكلمات التى يتفوه بها :

– نعم يبدو انكن – معشر السيدات – لابد ان ترفعن كأس الاستهتار حتى شفاهكن قبل ان تستطعن تذوق الحياة ، وانتن فى ذلك لا تصدقن ابدا تجربة الاخرين . فى ذلك الوقت ، لم تكونى قد توغلت بعد فى عالم الميوعة والاغراء واطهار الرقة ، فتركتك تغمسين نفسك لحظة فى هذا العالم ، ولم يكن من حقى ان أمنعك من ذلك لمجرد ان ساعات الهوى ونزوات شبابى انقضت – بالنسبة الى – منذ زمن طويل ..

قلت :

— اذا كنت تحبني ، فلماذا اذن تركتني أعيش وسط هذا الجو المشبع بالميوعة ؟
فقال :

— لانه لم يكن من الحكمة ان تصدقيني ، وكان لابد من ان تختبرى هذا الجو بنفسك ..
قلت :

— لقد كنت تفكر بعمق كبير ، وهذا معناه انك لم تكن تحبني .. وساد الصمت بيننا مرة اخرى ، واخيرا قال وهو يقف فجأة :
— لقد قلت هنا منذ لحظة كلاما قاسيا . ولكنه الحقيقة ..
نعم ، انه الحقيقة ..

وبعد ان تمشى لحظة في أرجاء الشرفة ، وقف امامي واضاف قائلا :

— نعم .. لقد كنت مذنبا .. لقد كان يجب الا آذن لنفسى بأن احبك ، او ان احبك ببساطة اكثر ..!
فقلت في تواضع وخجل :

— لننس كل شيء يا سيرج ..

فقال بصوت خفت حدة جفائه بعض الشيء :

— كلا .. ان ما ينتهى لا يمكن ان يعود ، والمرء لا يرجع ابدا الى الوراء ..

فقلت وانا اضع يدي على كتفه :

— ولكن .. لقد عاد كل شيء يا سيرج ..

فأمسك بيدي ووضفط عليها قليلا ، ثم ابعداها عن كتفه وهو يقول :

— كلا .. اننى لم اذكر الحقيقة حينما ادعيت اننى لا اندم الى الماضى . والواقع انى اندم على حبك الماضى وابكى عليه . اننى بكى على هذا الحب الذى لم يعد يستطيع ان يعيش اليوم بصورة

أكثر قوة . من المسئول عن كل ذلك ؟ لست أدري .. قد يكون
الحب لا يزال موجودا ، ولكنه لم يعد كما كان . ان مكانه لا يزال
يملا قلبي .. ولكنه مهشم وبلا طعم ، ولم تتلاش الذكرى والرفان
بالجميل . ولكن ..

فقاطعته قائلة :

— لا تتحدث هكذا .. فلنبعث هذا الحب كاملا من جديد مثلما
كان في الماضي ...

ونظرت في عينيه مباشرة ، ثم أضفت قائلة :

— هل يمكن ذلك ؟ ..

كانت عيناه صافيتين وهادئتين ، وبدأت أحس بأن هدفي من
الحديث مع سيرج لم يعد بعيد التحقيق . وكان يبتسم ابتسامة
هادئة جميلة تشبه ابتسامة الشيوخ .. قال :

— انك لا تزالين صغيرة السن ، وأنا رجل عجوز .. ولم أعد
أملك ما قد تريدين البحث عنه ..

وأضاف يقول وهو لا يزال يبتسم :

— لماذا يخدع المرء نفسه ؟

كنت صامتا الى جواره ، وكنت أشعر بالهدوء يعود الى نفسي
رويدا رويدا ..

قال سيرج :

— ينبغي الا نحاول أن نقزّر الحياة ، كما لا يجب أن نكذب على
انفسنا . ومن فضل الله علينا أن لم يعد هناك ما يعكر علينا حياتنا
او يثير الغضب في نفوسنا .. لقد سبق لنا ان استمتعنا بكل ما كنا
نريد ، وقد ظفرنا بنصيب وافر من السعادة

وأشار سيرج بيده الى المربية التي كانت تقترب منا ، وكانت

واقفة الى جوار باب الشرفة حاملة ولدنا فانيا بين ذراعيها ، ثم
اختتم حديثه قائلا وهو ينحنى على راسي ويقبلها :

— لمن يجب أن نجتهد في شق الطريق ؟ .. لطفينا .. هذا ما
يجب ان نفعل يا صديقتي العزيزة ..

لم يكن الذى يقبلنى رجلا مجبا وانما كان صديقا قديما ..
وكانت رطوبة الليل المشبعة بعبير الزهور تهب من نهاية الحديقة
وتزداد جمالا وقوة ، وكانت هناك اصوات بعيدة منتشرة فى الهواء
تعقبها فترات هدوء عميق ، والنجوم تتكاثر فى السماء ..

ونظرت الى سيرج ، فشعرت بهم ثقيل تخف وطأته عن كاهلى،
وكنت اشبه ما اكون بانسان يشعر بالراحة بعد ان انتزعوا منه
عضوا مريضا كان يذيقه العذاب . وأدركت على الفور فى وضوح
ان عاطفتى التى كانت تسيطر على خلال تلك الفترة من حياتى قد
اختفت بلا عودة .. بل لقد تلاشت أيضا هذه الفترة نفسها من
حياتى ، وأصبحت عودتها شيئا مستحيلا ومؤلما وكرها على نفسى
وقال سيرج فى رفق :

— أظن انه قد حان موعد تناول الشاى ..

وذهبنا معا الى غرفة الجلوس .. وصادفت المربية مع ماشا
امام باب الغرفة ، فأخذت طفلى بين ذراعى وغطيت قدميه الصغيرتين
العاريتين وضممته بشدة الى صدرى وقبلته ، وحينئذ حرك
ذراعيه وهو نائم تقريبا ، ثم فتح عينين بدت فيهما الحيرة كما يفعل
المرء حين يحاول أن يتذكر شيئا ، ولم يلبث أن لمع فيهما بريق من
الذكاء وابتسم ابتسامة عريضة

وأحسست بخمول لذيذ يشيع فى اعضاء جسمى وأنا احمل
طفلى فى حنان محاولة الا اسبب له الالم ، ورحت اكرر قائلة :

— انك ملك لى .. انك ملك ..

واقترب زوجى منى ، وغطى وجه الطفل ، ثم عاد فكشفه من

جديد وهو يقول مداعبا الطفل باصبعه تحت ذقنه :

- يا ايفان سرجيفيتش !

وغطيت وجه الطفل مرة أخرى ، اذ لم اكن اريد ان ينظر اليه شخص آخر سوانا ، ونظرت الى زوجي فالفيت عينيه تضحكان وتنظران الى دائما ، وكانت هذه اول مرة اشعر فيها بالسرور وانا اناملهما منذ زمن بعيد

وفي اليوم نفسه ، انتهت قصة غرامى مع زوجى .. وظلت العاطفة القديمة قائمة فى قلبى ومعها تلك الذكريات العزيزة التى لم يعد من الميسور ان نحياها من جديد .. لقد نشأ فى قلبى حب جديد لابنائى ووالد ابنائى . وكان هذا فاتحة حياة جديدة تكتنفها سعادة من لون مختلف ..

وحتى هذه اللحظة ، لم استنفد بعد هذه السعادة ، وانا الآن مقتنعة تماما بأن السعادة الحقيقية للمرأة تكمن فى بيتها واولادها والمسرات العائلية النقية ..

انتهى

سلسلة روايات الهلال

مجلة قصصية شهرية تصدر عن دار الهلال

بدأت حياتها في يناير سنة ١٩٤٩ باصدار الروايات الخالدة التي وضعها المرحوم جرجى زيدان عن تاريخ الاسلام ولقيت في عهده انتشارا كبيرا ...
ثم واصلت جهودها في خدمة الادب القصصى الرفيع بتقديم منتخبات من روائع القصص العالمى ...

فهل تنقص مجموعتك احدى هذه الروايات ؟ ...

روايات تاريخ الاسلام لجرجى زيدان

- ١ - فتح الاندلس (نفذت)
وصف اسبانيا وفتح العرب لها
- ٢ - صلاح الدين ومكايد الحشاشين (نفذت)
قصة قيام الدولة الابوية وحياته مؤسسها
- ٣ - شجرة الدر (نفذت)
قصة مبايعة اول ملكة في الاسلام بمصر
- ٤ - ارمانوسة المصرية (نفذت)
قصة فتح مصر على يد عمرو بن العاص
- ٥ - عفراء قرينش (نفذت)
قصة مقتل الخليفة عثمان بن عفان
- ٦ - ١٧ رمضان (نفذت)
قصة مقتل الامام على وفتنة الخوارج
- ٧ - غادة كربلاء (نفذت)
قصة مقتل الامام الحسين وآل البيت
- ٨ - الحجاج بن يوسف (نفذت)
قصة مقتل عبدالله بن الزبير بعد حصار مكة
- ٩ - شارل وعبد الرحمن (نفذت)
قصة فتوحات العرب في فرنسا
- ١٠ - ابو مسلم الخراساني (نفذت)
قصة قيام الدولة العباسية في بغداد
- ١١ - العباسة اخت الرشيد (نفذت)
قصة نكبة البرامكة في عهد الرشيد
- ١٢ - الامين والمأمون (نفذت)
قصة انتقال الخلافة من الامين لاخته المأمون
- ١٣ - عروس فرغانة (نفذت)
قصة الدولة العباسية في عهد المتصم
- ١٤ - احمد بن طولون (نفذت)
قصة استقلال مصر في عهد احمد بن طولون
- ١٥ - عبد الرحمن الناصر (نفذت)
قصة العصر الذهبي للعرب في الاندلس
- ١٦ - فتاة القيروان (نفذت)
قصة فتح الفاطميين لمصر على يد القائد جوهر

- ٢١ - استبعاد الماليك (نغدت)
 قصة الحرب بين روسيا وتركيا
 ٢٢ - الملوك الشارد (نغدت)
 وصف مصر وسوريا في القرن الماضي
 ٢٣ - جهاد الحسين (نغدت)
 قصة انتصار الحب الصادق برغم كل
 العقبات

- ١٧ و ١٨ - فتاة غسان « جزءان »
 (الجزء الاول نغد)
 قصة ظهور الاسلام وفتحاته الاولى
 ١٩ - الانقلاب العثماني
 وصف حالة تركيا في عهد عبد الحميد
 ٢٠ - اسير المتمهدي
 قصة ثورة عربى بمصر والمهدى بالسودان

•• ومن روائع القصص

- ٤١ - ابنة البخيل (نغدت)
 تأليف أونوريه دى بلزاك
 ٤٢ - مأساة مايرلنج
 تأليف بول ريبو
 ٤٣ - الارض الطبية
 تأليف بيرل بك
 ٤٤ - غراميات راسبوتين
 تأليف شارل بنى
 ٤٥ - جريمة في الريف
 تأليف اجانا كريستى
 ٤٦ - ماري انطوانيت
 تأليف ستيفان زفايج
 ٤٧ - الفارس الخامس
 تأليفه اسكندر دوماس الكبير
 ٤٨ - الادب الخالد
 تأليف أونوريه دى بلزاك
 ٤٩ - مغامرات مستر بيكوك
 تأليف شارلز ديكنز
 ٥٠ - كانالينا
 تأليف سومرست موم
 ٥١ و ٥٢ - الفرسان الثلاثة «جزءان»
 تأليف اسكندر دوماس الكبير
 ٥٣ - زهرة الحب
 تأليف أونوريه دى بلزاك
 ٥٤ - الشقراء البريئة
 تأليف ايرل ستانلى جاردنر
 ٥٥ - شعب وطافية
 تأليف اسكندر دوماس الكبير
 ٥٦ - الغافية اللعوب
 تأليف ايفان تورجنيف
 ٥٧ - صراع الحب
 تأليف فيدرو دوستوفسكى

- ٢٤ - غرام نابليون في مصر (نغدت)
 تأليف روجيه رجيى
 ٢٥ - غرام عطيل
 تأليف اميل لودفيج
 ٢٦ - رسول القيصر
 تأليف جول فيرن
 ٢٧ - غادة طيبة
 تأليف اجانا كريستى
 ٢٨ - روميو وجوليت
 تأليف بول ريبو
 ٢٩ - غادة الكاميليا
 تأليف مرسيل موريت
 ٣٠ - انا كارنينا
 تأليف ليو تولستوى
 ٣١ - الزنيقة السوداء
 تأليف اسكندر دوماس الاب
 ٣٢ - افلال الحب
 تأليف سومرست موم
 ٣٣ - قلوب تحترق
 تأليف ستيفان زفايج
 ٣٤ - ملاك الرعب
 تأليف ادجار والاس
 ٣٥ - ذات الرداء الابيض (نغدت)
 تأليف ويلكى كولنز
 ٣٦ - الكونت دى مونت كريستو
 تأليف اسكندر دوماس الكبير
 ٣٧ - البعث (نغدت)
 تأليف ليو تولستوى
 ٤٠ و ٤١ - ذوالقناع الحديدى «جزءان»
 (نغدا)
 تأليف اسكندر دوماس الكبير

- ٥٨ - في مهب الريح
تأليف لين يوتنج
- ٥٩ - أوليفر تويست
تأليف شارلز ديكنز
- ٦٠ - الثورة الحمراء
تأليف اسكندر دوماس الكبير
- ٦١ - جريمة في وادي النيل
تأليف أجانا كريستي
- ٦٢ - قلان في عاصفة
تأليف روفائيل سبائيني
- ٦٣ - احبب نوتردام
تأليف فيكتور هيجو
- ٦٤ - الشبح الرهيب
تأليف أجانا كريستي
- ٦٥ - الحب في العذاب
تأليف ابيه بريغو
- ٦٦ - العاشق الفارس
تأليف اسكندر دوماس الكبير
- ٦٧ - النفسجة الحسنة
تأليف اسكندر دوماس الكبير
- ٦٨ - العاشقة العذراء
تأليف ايغان تورجنيف
- ٦٩ - دافيد كوبرفيلد
تأليف شارلز ديكنز
- ٧٠ - عاصفة وقلب
تأليف فيكتور هيجو
- ٧١ - ذات الشعر الذهبي
تأليف سومرست موم
- ٧٢ - الوحش الرهيب
تأليف ادجار والاس
- ٧٣ - العاشق المجنون
تأليف اميل زولا
- ٧٤ - جوهرة القمر
تأليف ويلكي كولنز
- ٧٥ - السجن الهارب
تأليف ادجار والاس
- ٧٦ - غانية باريس
تأليف اميل زولا
- ٧٧ - جنون الحب
تأليف سومرست موم
- ٧٨ - الخيط العموي
تأليف كونان دويل
- ٧٩ - صراع بين الاجيال
تأليف ايغان تورجنيف
- ٨٠ - الكلب الجهنمي
تأليف كونان دويل
- ٨١ - الرابية المجوز
تأليف فيدور دستوفسكي
- ٨٢ - قلب محطم
تأليف جي دي موباسان
- ٨٣ - الاقلاق الضائع
تأليف جيمس هيلتون
- ٨٤ - مرتفعات ويدرنج
تأليف اميلي برونتي
- ٨٥ - مغامرات شرلوك هولمز
تأليف كونان دويل
- ٨٦ - الزوج الخالد
تأليف فيدور دستوفسكي
- ٨٧ - الارض العذراء
تأليف ايغان تورجنيف
- ٨٨ - رجال الله
تأليف بيرل بك
- ٨٩ - مذكرات شرلوك هولمز
تأليف كونان دويل
- ٩٠ - قلب المرأة
تأليف سومرست موم
- ٩١ - امرأة في الثلاثين
تأليف اونوريه دي بلزاك
- ٩٢ - الكنز المفقود
تأليف كونان دويل
- ٩٣ - ابن مصر
تأليف جيمس بسبي الصغير
- ٩٤ - اعلان عن جريمة
تأليف أجانا كريستي
- ٩٥ - الحب العظيم
تأليف ايغان تورجنيف
- ٩٦ - الكأس الاخيرة
تأليف أجانا كريستي
- ٩٧ - وادي الرعب
تأليف كونان دويل
- ٩٨ - بنت مصر
تأليف مارجرى لورنس
- ٩٩ - ابنة القائد
تأليف اسكندر بوشكين
- ١٠٠ - الحرب والسلام
تأليف ليو تولستوي
- ١٠١ - عنتره بن شداد (الجزء الاول)
تأليف يوسف بن اسماعيل

- ١٠٢ - نهاية فرام
تأليف جراهام جرین
- ١٠٣ - عنتره بن شداد «الجزء الثاني»
تأليف يوسف بن اسماعيل
- ١٠٤ - خاتم سليمان
تأليف أونوريه دى بلزاك
- ١٠٥ - عنتره بن شداد «الجزء الثالث»
تأليف يوسف بن اسماعيل
- ١٠٦ - الجوهرة الخضراء
تأليف ادجار والاس
- ١٠٧ - خفايا باريس
تأليف سومرست موم
- ١٠٨ - الرجل الثالث
تأليف جراهام جرین
- ١٠٩ - مغامرة فوق القمر
تأليف هربرت ج . ويلز
- ١١٠ - عدالة السماء
تأليف اجانا كريستي
- ١١١ - غراميات أهل الفن
تأليف برنارد شو
- ١١٢ - جريمة على الشاطئ
تأليف جراهام جرین
- ١١٣ - اميرة الريح
تأليف ادجار وايس بوروز
- ١١٤ - المليون الضائع
تأليف ادجار والاس
- ١١٥ - قلب الغائبة
تأليف سومرست موم
- ١١٦ - ملك المزيفين
تأليف ادجار والاس
- ١١٧ - فتش عن المرأة
تأليف اجانا كريستي
- ١١٨ - جزيرة الاحلام
تأليف سومرست موم
- ١١٩ - العالم المفقود
تأليف كورنان دويل
- ١٢٠ - اغلال الخطيئة
تأليف جورج سيمنون
- ١٢١ - الثعسان الطائر
تأليف ادجار والاس
- ١٢٢ - المصارع الجريء
تأليف بلاسكو ايبانيز
- ١٢٣ - المندوب السرى
تأليف جراهام جرین
- ١٢٤ - جريمة في القصر
تأليف اجانا كريستي
- ١٢٥ - اليد المجهولة
تأليف جورج سيمنون
- ١٢٦ - مدينة الذهب
تأليف رايدر هجارد
- ١٢٧ - جريمة في الفضاء
تأليف تشارلز اريك مين
- ١٢٨ - لغز المفتاح النضى
تأليف ادجار والاس
- ١٢٩ - معبد الحب
تأليف اجانا كريستي
- ١٣٠ - هذه المرأة لى
تأليف جورج سيمنون
- ١٣١ - ايفانهو او الفارس الاسود
تأليف سير والتر سكوت
- ١٣٢ - حسناء القوقاز
تأليف ليو تولستوى
- ١٣٣ - الساحر الجبار
تأليف سومرست موم
- ١٣٤ - الرجل القامض
تأليف اجانا كريستي
- ١٣٥ - اشباح الرعب
تأليف ادجار والاس
- ١٣٦ - الخطيئة السابعة
تأليف سومرست موم
- ١٣٧ - الحكم الرهيب
تأليف ادجار والاس
- ١٣٨ - ساحرة الرجال
تأليف جون شتاينبك
- ١٣٩ - الجوهرة الدامية
تأليف رايدر هجارد
- ١٤٠ - كنت جاسوسا
تأليف سومرست موم
- ١٤١ - عذراء وثلاثة رجال
تأليف جيمس هيلتون
- ١٤٢ - اللغز العجيب
تأليف اجانا كريستي
- ١٤٣ - المنتقم
تأليف ادجار والاس
- ١٤٤ - رجال ونساء وحب
تأليف جون شتاينبك
- ١٤٥ - ليلة فرام
تأليف سومرست موم

- ١٤٦ - مغامرات في عصر الفضاء
تأليف روبرت شيكلي
- ١٤٧ - الفتاة الفارسي
تأليف د. س. ديمتريف
- ١٤٨ - زواج حرب
تأليف هنري بورديو
- ١٤٩ - جريمة في الكونغو
تأليف جورج سيمون
- ١٥٠ - المليونير العجيب
تأليف ادجار والاس
- ١٥١ - العاشق الظريف
تأليف أرنولد بنيت
- ١٥٢ - تميزاً
تأليف اميل زولا
- ١٥٣ - النيران والجسد
تأليف جورج آرنو
- ١٥٤ - المهريون
تأليف ارنست همنجواي
- ١٥٥ - فادة اليابان
تأليف بيرل بك
- ١٥٦ - القاتل الخفي
تأليف اجانا كريستي
- ١٥٧ - صقر البحر
تأليف رافائيل ساباثيني
- ١٥٨ - صفحة حب « الجزء الاول »
تأليف اميل زولا
- ١٥٩ - صفحة حب « الجزء الثاني »
تأليف اميل زولا
- ١٦٠ - التمردة الحسنة
تأليف بيرل بك

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الروايات
من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب
(المتديان) بالقاهرة

الاسعار

ثمن النسخة الواحدة (٨٠ مليما) بخلاف مصاريف البريد المسجل